

صورة السجين السياسي
رواية "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف أنموذجاً

إعداد

أ.د. محمد محمود أبو علي
أستاذ النقد والبلاغة

أ.رانيا فايز اللبودي
باحثة ماجستير

قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة دمنهور

دورية الانسانيات. كلية الآداب. جامعة دمنهور
العدد الثالث والستون - يوليه - الجزء الأول - لسنة 2024

صورة السجين السياسي ؛ رواية "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف أنموذجاً

أ.رانيا فايز اللبودي

أ.د/ محمد محمود أبو علي

المقدمة

كثيرة هي الموضوعات التي عالجهما الأدب، وكتب فيها الأدباء، ولكن قليل منها ما يعلق في النفس ويمس شغاف القلب. ولعل أدب السجون أحدها، ذلك الأدب الذي تبرز فيه النزعة الإنسانية في أجلى صورها، وهي صور المعاناة والعذاب. فالسجن هو السجن مهما اختلفت أشكاله وأماكنه، من هنا جاء اختيار الموضوع "أدب السجون"، سلطت فيه الضوء على ما يحدث في السجون من تعذيب نفسي وجسدي.

فلكل رواية موضوعها الجوهرى الذي تراهن عليه، مهما كانت كبيرة أو صغيرة، ولذا كان الموضوع يشكل عقل المروية وضميرها، فإن الكيفية التي يسرد بها الموضوع بمثابة الرداء الشفاف الذي يغلف معاني الموضوع، وهذا ما يجرنا إلى طرح الإشكال التالي: كيف تظهر الموضوعات في رواية شرق المتوسط لعبد رحمان منيف؟ كيف يواجه الإنسان واقع السجن السياسي حيث يكون القهر سمته بالأساس؟ كيف يتحمل الاستبداد والتعذيب، ويقاوم الظلم والطغاة؟

يتفق الجميع بأن الحرية أعلى ما يمكن أن يملكه الإنسان، بدونها يصبح الإنسان مسلوب الإرادة، فقد جمع الأدباء كل صنوف وصف الألم، والعذاب الجسدي والنفسي، الذي مس فئات مختلفة من الشباب، والشيوخ في المعتقل، تقنن حراسه وجلاديه في إيقاع الأذى والضرر، حتى وصل بالمعتقلين إلى الجنون، أو العاهات المستديمة، أو الإلحاد، والوقوع في ابتلاء عظيم يحتاج إلى نفوس قوية، وإرادة استثنائية للتحمل.

ولقد اهتم الأدباء في كتاباتهم على مجموعة من المعاناة التي عاشوها، فرصدت الرواية عدة قضايا غياب الديمقراطية، واستبداد بالسلطة، والقمع والقهر السياسي، ورصد ظاهرة السجون وضمن هذا السياق تناول منيف روايته "شرق المتوسط" موضوعاً لافتاً للانتباه وهو موضوع السجن، فهذه الرواية تركز على فترة من حياة الشاب المنقف، رجب إسماعيل الذي شهد كل أشكال التعذيب، شارك في العمل السياسي، وبسبب هذا زج به في السجن، ومورست عليه الكثير من الضغوطات لتوقيع "الورقة"، بعدم مشاركة أي نشاط سياسي، فالرواية ترصد لنا معاملة الأنظمة الاستبدادية مع معتقليها، فهم لا يكتفون بما يفعلونه في السجن فقط، بل يلاحقون الفرد حتى بعد خروجه.

كما تتعرض الرواية أيضا إلى دور المرأة في حياة السجين سواء كانت أم أم أختا أم حبيبة؛ فاختيار أي موضوع معين قصد الدراسة، لا يكون اعتباطيا، انطلاقا من كونه يشكل معنى، فسبب اختيارنا لهذه المدونة "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف لأنها تنطبق على الأوضاع التي تشهدها البلاد العربية عامة والوطنية خاصة، فكثير من البلاد العربية دمرت، وقتل أهلها، وشردوا، بسبب معارضتهم لسلطة وطنهم، ومطالبتهم بالعيش بحرية وديمقراطية.

وتعود الأسباب في اختيار هذا الموضوع إلى ضرورة التعمق في دراسة هذا الأدب، من خلال الوقوف على نماذج متنوعة وبيئات مختلفة، والتعرف إلى عالم الشجن مجتمعه ومحتوياته ونظامه، كذلك محاولة دراسة بعض الآراء التي تميز بين سجن وآخر، أو تفضل سجانا على سجان، كما تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن بعض الأحداث والأسرار والحقائق الإجرامية التي يحاول السجان المعتدي طمسها سواء في سجن الاحتلال أو في السجون العربية. وتكمن أهمية هذه الدراسة في توضيح الدور الذي يؤديه هذا الأدب، فهو أدب ذو رسالة تربوية وتعبوية، ولا بد من لفت الانتباه إليه والإفادة مما جاء فيه من تجارب وقصص، خاصة بعد اتساع أفقه، وكثرة المؤلفات فيه، كما لا بد من الوفاء لأولئك الذين يقفون وقفة عن صامدين خلف جدران الزنازين في السجن، تلك الفئة التي استمرت بالنضال رغم القيود، فوجدت في القلم والكلمة سلاحها الوحيد چه به عصا الجلال والمحنت الغاشم والنظام المستبد.

يرجع اهتمام الرواية بالواقع السياسي، إلى الارتباط الوطيد الناشئ بين الروائي والمجتمع، والمعروف أن تاريخ الرواية العربية هو تاريخ التعبير عن المجتمع العربي بمختلف موضوعاته، واهتماماته، ولذلك تعد الرواية إحدى وسائل التعبير الخلاقة عن المجتمع سواء اتخذت منحى التصريح المباشر، أو منحى التلميح الذي يمكن فهمه عن طريق التأويل. والرواية العربية تمكنت من احتواء التغيرات السياسية التي هزت وجدان المجتمع العربي في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وذلك بفضل جهود روائيين كرسوا إبداعهم لخدمة الإنسان العربي، حين فضحوا آليات كثير من الأنظمة الحاكمة المستبدة، وأدانوا ابتعادها عن الجماهير.

وقد أبدى الروائيون العرب اهتماماً جلياً بالواقع السياسي عبر مدار التحولات التي طرأت على المجتمع العربي، مثل: عبد الرحمن منيف، وجبرا إبراهيم جبرا، وحيدر حيدر، وصنع الله إبراهيم، وغيرهم، مما أوجد مدونة نصية من الأعمال الروائية، أطلق عليها الرواية السياسية. تجلت تمثيلات هذا العنصر/السياسي في النصوص الروائية وفق

مستويات مميزة، لأن الروائي في المجتمع ذي النظام القمعي "يدخل في مغامرة غير مأمونة العواقب السلطة مع السياسية الحاكمة التي يعارضها، أو يسبح تيار الفكر السائد، فقد تجر عليه كتاباته مخاطر لا تعد ولا تحصى" ولهذا تمّ- في كثير من النصوص الروائية- تجنب تحديد المكان، والإيحاء في تجسيد المواقف، ووجهات النظر، والاعتماد بشكل جلي على شخصية المثقف الثوري المتجرد عن المصلحة الذاتية، وهذا تمظهر بشكل بين في رواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف، موضوع اشتغالنا في هذه الدراسة النقدية. وسننطلق في تبيان إشكالية تغيير الواقع السياسي حسب النقاط التالية:

- تصور العلاقة بين المثقف التقدمي والسلطة المستبدّة؛ لتمحور مادتها الحكائية

حول الواقع

- أداة التغيير، وغايته.

- رد فعل السلطة الحاكمة

- انتقال التغيير من المستوى الداخلي إلى المستوى الخارجي وتداعياته.

- الملمح الشكلي.

تصور العلاقة بين المثقف التقدمي والسلطة المستبدّة

من يلق نظرة سريعة على الواقع السياسي العربي، يجده قاسيا ومؤلما، لأن المواطن العربي يعاني معاناة شديدة الوطأة من ترهل أغلب الأنظمة العربية الحاكمة المسؤولة عن الهزائم التي لحقت بالمجتمع العربي، ومن تسلط آليات قمعها على رقاب الجماهير، وتغييبها للديمقراطية، وسلبها للحريات العامة، وملاحقتها للمثقفين التقدميين على أرض الوطن، وفي بلاد المنفى.

إن هذا الواقع اللامعقول الذي لا يحقق الحياة الكريمة للإنسان العربي، ويجعله أرخص الأشياء التي لا قيمة لها، يناقض وعي المثقف المتنامي، وأفكاره وتصوراته المتطورة عبر تعاقب الزمان عن الواقع والحياة، لأن الإنسان لا يولد ولديه تصورات، عما ينبغي أن تكون عليه الحياة، و"هذه التصورات حين تنشأ، تتكون في وعيه متأثرة بحياته الواقعية، وظروفه الموضوعية، وعلاقاته العامة، وما تزخر به من حاجات ومطالب ورغبات".

والمثقف يقرأ الواقع باستمرار، ويحلله تحليلا دقيقا متلمسا سلبياته، وبعد أن تكتمل ملامح الواقع في ذهنه، يدفعه حس الواجب الأخلاقي نتيجة إحساسه الحاد بالدور الحضاري المسند إليه تجاه المجتمع إلى تحويل تصورات وأفكاره إلى أفعال ملموسة، يسعى من خلالها إلى إلغاء ما هو كائن، وتجسيد ما يجب أن يكون، ولذلك تتجلى علاقته

بالسلطة الحاكمة متصفة بالتوتر والعداء, بسبب التناقض الكلي في رؤية الواقع وفهمه, والسلطة تعمل بكل جهدها على ترسيخ دعائم ما هو كائن, والدفاع عنه حتى الرمق الأخير بكل الوسائل التي تمتلكها سواء المتاحة منها والمفروضة, في حين أن المثقف يرفض ما هو كائن من أجل ما يجب أن يكون منطلقاً من المثل الأعلى الذي يؤمن به, فهو في حركة دائمة ومتجددة, ورغبة جامحة لا تتوقف من أجل تغيير الواقع, وإعادة تشكيله ضمن أسس, تؤمن للإنسان حياة كريمة, تليق به, لذلك ينتقي بين هذين الطرفين الحوار والاتفاق, فيعمل كل واحد منهما على إزاحة الآخر, المثقف يستخدم الكلمة والسلطة تستخدم القمع والسجن والقتل, كما فعل رجب إسماعيل مع السلطة الحاكمة في بلد ما شرقي المتوسط, في رواية (شرق المتوسط).

ولقد اعتمدت في البحث على المنهج الموضوعاتي, حيث وجدته الأنسب في الدراسة, لأننا بصدد رصد الموضوع الرئيس في الرواية, وذكر الموضوعات المنبثقة منه. وقد قسمت البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة, وذيلته بذكر أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في دراسة موضوع البحث.

أما الفصل الأول فعنوانته باسم أدب السجون: تعريفه ونشأته وموضوعاته؛ وقد قسمته إلى خمسة مباحث؛ المبحث الأول يتضمن مفهوم السجن خاصة وأدب السجون عامة, والمبحث الثاني عن أسباب ودواعي ظهور أدب السجون, والمبحث الثالث يحتوي على لمحة خاطفة عن تاريخ أدب السجون, ثم عرجت في المبحث الرابع إلى أهم موضوعاته, وأخيراً في المبحث الخامس تحدثت عن أهم سماته الجمالية.

الفصل الثاني تناولت فيه الجانب التطبيقي في دراستي لرواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف, وجاء على مبحثين, استهللت الأول بتمهيد عن مفهوم المنهج الموضوعاتي والذي اتكأت عليه في البحث, نظراً لقلّة استخدامه وعزوف الكثيرين عنه, أما المبحث الثاني فكان بمثابة دراسة تطبيقية للرواية من حيث دلالة العنوان وفضاء الزمان والمكان, والحبكة والشخصيات, والسرد واللغة.

ثم كتبت الخاتمة والتي عرضت فيها لأهم النتائج التي توصلت إليها, وأخيراً عرضت قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

أولاً : أدب السجون: تعريفه ونشأته وموضوعاته

أ- مفهوم أدب السجون:

السَّجْن لغةً: الحبس، والسَّجْن بالفتح: المصدر، سجنه يسجنه سجنًا أي حبسه، والسجان: صاحب السجن. ورجل سجين: مسجون، والجمع: سجناء وسجنى. وجاء في القرآن الكريم: "قال رَبِّ السَّجْن أَحَبُّ إِلَيَّ"¹. بفتح السين على أنها المصدر، وكسرهما في قراءة أخرى على أنها اسم وتعني المحبس². والسجن اصطلاحاً: "هو ذلك المكان الحرج الضيق، الذي تنفذ فيه الأحكام على الأشخاص المذنبين، إذ يتم اعتقالهم لمدة زمنية محددة، أو مؤبدة، أو لتنفيذ حكم الموت أو الإعدام بحقهم". وهنا احتوى التعريف كلمة "المذنبين"، ومن المهم الإشارة أن هذه الدراسة تناولت الحديث عن سجناء وطنيين أبطال، وسجناء سياسيين أودعوا السجن ظلماً وبهتاناً، فهذا التعريف يحوي تعميماً مجحفاً.

وقد وردت لفظة السجن ومشتقاتها مرات عدة في القرآن خاصة في سورة يوسف، قال تعالى: "قلبت في السجن بضع سنين"³. وعن قصة سجن يوسف - عليه السلام - جاء في المحاسن والمساوي: "كتب يوسف على باب السجن: هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء. ودعا لأهل الحبس: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار"⁴.

وقد نشأ أدب السجون منذ القدم منذ نشأت السجون، فهناك كثير من الشعراء والكتاب الذين نقلوا تجربتهم داخل السجن ووثقوها نثراً وشعراً، ولعل هذا النوع من الأدب كان الأكثر إنسانية كونه يعبر عن حالة خاصة وتجربة شخصية عانى منها السجين فعبر عنها بأسلوبه تعبيراً يفيض ألماً وصدقاً وشفافية.

وقد كان لأزمة السجن أثر كبير على السجين الإنسان، إذ إن تلك العقوبة القاسية التي تقوم على سلب الحرية وهي أعز ما يملكه البشر تعني التوحد مع الذات ومحاسبتها ولومها، وللسجن آثار بيئية على جسد السجين ونفسيته، وربما أثرت كذلك في فكره وقيمه وقناعاته، لذا كانت تلك التجربة من بين أقسى التجارب التي يبتلئ بها بشر، ولمّا كان لها هذا الفعل الشديد، انطلقت أحاسيس الأدباء من السجناء وتيقظت ملكاتهم وخطت أفلامهم

¹ سورة يوسف، 33/12.

² ابن منظور، لسان العرب، 203/13 مادة "سجن"

³ سورة يوسف، 42/12

⁴ إبراهيم بن محمد البيهقي، المحاسن والمساوي، ص521

ما اعتمل في قلوبهم وأذهانهم، فكان أدب السجون حقلاً واسعاً مستقلاً بين حقول الأدب المتنوعة بشعره ونثره، فما هو أدب السجون؟

مفهوم أدب السجون:

تعددت تعريفات أدب السجون رغم اتحاد مضامينها، فالروائي إبراهيم الزنط والأديب الناقد عبد الخالق العف اتفقا على أن "أدب السجون هو كل ما كتبه الأديب داخل المعتقلات، أما ما يكتب عن السجن من غير السجناء فهو أدب عن السجون"⁵، ورأى الأديب والروائي شعبان حسونة أن "أدب السجون هو كل ما يكتب في السجن ويهتم بقضايا السجن، ويستثني الأدب العاطفي والبولييسي وغيرها حتى لو كتبت في السجن"⁶. في حين رأى الأديب المحرر فايز أبو شمالة أن أدب السجون هو كل ما له علاقة بالوجدان والعاطفة، والذي يعبر عنه من خلال الرواية والقصة والشعر والخاطرة، وهو عنده شقان: شق يتعلق بالسجناء أنفسهم وما كتبوه داخل السجن، وشق يتعلق بما عبر عنه الأدباء خارج السجن من بعد أن استمعوا لمن خاض تلك التجربة فحاول الأدباء أن يعيشوها بوجدانهم ثم عبروا عنها وفق ما صورته مخيلتهم. وبعض الأدباء التقاد مثل سلمان جادالله مؤلف كتاب منابع أدب الحركة الأسيرة الوطنية، رأوا بأن أدب السجون هو الذي ينجزه السجين داخل السجن، ويشمل الزوايا والقصة والشعر والمسرحية والزجل وحتى اللوحات الفنية المرسومة، ويستثني من ذلك المقالات السياسية والتاريخ. في حين أن السجين الأديب الدكتور خضر محجز رأى أن كل إنجاز أدبي يكتبه السجناء خلال اعتقالهم حتى لو لم يكن عن السجن هو أدب سجون. وقال السجين الروائي وليد الهودلي: "أن أدب السجون هو كل ما يكتبه السجين داخل المعتقلات، أو ما يكتبه من مذكرات بعد التحرر، أو ما كتب عنهم وعن السجون من غيرهم شعراً ونثراً، ويستثني الدراسات والأبحاث والكتب في مجالات من غير الإنتاج الأدبي"⁷. ومن جانب آخر نجد الأدبية والسجينة المحررة عائشة عودة ترفض التسمية بأدب السجون، لما لها من دلالة ضيقة محدودة أو النسبة للمكان، وتفضل تسمية هذا الأدب بأدب المقاومة أو الأدب المقاوم.

تلك بعض التعريفات، وإن اختلفت آراء النقاد والأدباء حولها فإنها اتفقت في مضامينها الأساسية، حيث كان المكان - وهو الشجن - الركيزة الأساس لها، وعليه

⁵ رأفت حمدونة، أدب السجون التعريف والمميزات، مقالة إلكترونية <https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2016/01/24/391920.html>

⁶ المرجع نفسه

⁷ المرجع نفسه

توصلت الباحثة إلى تعريف مفاده أن (أدب السجون هو أدب الممانعة والرفض، وهو كل عمل أدبي له علاقة بالسجن سواء أكتبه الأديب السجين من داخله أم بعد تحزره، وسواء أكتب بقلم الأديب السجين أم بقلم أديب لم يجزب حياة السجن). وكان الوصول إلى هذه النتيجة بعد قراءات عديدة أفادت أن كثيرا من الأعمال الأدبية التي كتبت عن تجربة السجن من خارج السجون والمعتقلات تم تصنيفها على أنها أدب سجون، حتى أن بعض الأعمال الأدبية مثل كتابات الأديب الإنجليزي أوسكار وايلد عن سجين جنائي في سجن مدني لا سياسي، صنفتم ضمن أدب السجون، كما أن رواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف مثلا هي أول ما يتبادر للذهن إذا طرح موضوع أدب السجون، رغم أن كاتبها لم يجرب السجن سوى بضعة أشهر.

إن "أدب السجون" صار ملازماً للقمع الذي رافق الطبيعة البشرية، فحضر في كل اللغات، وفي كل الحقب والأزمان، وتطوعت أصوات عاشت تجارب الاعتقال أو رويت لها أو حتى من نسج خيالها، لنقل تجارب ما وراء القضبان إلى الجمهور في قوالب فكرية وأدبية متنوعة، تراوح بين الرواية والقصة والسيرة والقصيدة. شكل السجن عبر التاريخ أحد الهواجس التي شغلت الإنسان عبر التاريخ، إذ لا تكاد تخلو ثقافة أي شعب من هذه الظاهرة، التي تشكلت في الواقع قبل أن تتشكل على مستوى الوعي الإنساني. يُطلق أدب السجون على أي عمل أدبي، يسرد قصة شخص - فردا أو جماعة - قضاها في مكان مضاد لإرادته، دون أدنى اعتبار لزمن الكتابة؛ فلا ضير أن تكتب على شكل يوميات أثناء الاعتقال، أو تحرر بعد مغادرة المعتقل زنزانتة ومعانقة الحرية، ما دامت ملتزمة الشرط الموضوعي للتصنيف، المرتبط بتصوير مناحي الحياة خلف القضبان، وجميع الأحداث البشعة داخل السجن، وأصناف الظلم والبطش والمعاناة؛ مادية كانت أو معنوية، التي كان نزلاء يتعرضون لها خلال فترة الاعتقال. بهذا الشرط يستلهم "أدب السجن" سماته من التجربة الواقعية في السرد. في تعريفه "أدب السجون"، يعده الروائي مصطفى لغتيري؛ صاحب رواية "ابن السماء"، تلك الكتابة التي تلامس تجربة الاعتقال السياسي إبداعيا. فهي بذلك تتخذ من الكتابة وسيلة لتصفية الحساب مع تجربة إنسانية ووجودية ونفسية مريرة، قد يكون المرء قد عاشها فعليا أو سمع عن تفاصيلها من أحد السجناء، أو هي فقط عبارة عن تجربة متخيلة لها ما يدعمها في الواقع، مما حدث لكثير من السجناء، وتناقلته الألسنة أو وسائل الإعلام.. باختصار، إنه أدب يحاول توثيق أشنع جرائم الإنسان تجاه الإنسان". يفضل بعض النقاد تسميته "الأدب السياسي"؛ لارتباطه الشديد بتوثيق وقائع الاعتقال السياسي، بدلا من "أدب السجون"؛ فوقع الإسناد الأول أخف وألطف في الأذن

من صلصلة الثاني، إلا أنه يبقى اختياراً غير موفق إطلاقاً؛ لما قد يثيره من التباس وتداخل مع السير الذاتية لرجال السياسة من ناحية، ومن ناحية أخرى لكون الغاية من وراء التفكير في هذا الصنف من الكتابة في الأصل، هي كشف هول وفجاعة وفظاعة ما يعيشه الأفراد في الأقبية والمعتقلات، فأخطر ما في السجن أن تفقد احترامك لذاتك. تاريخياً، يصعب تحديد العمل المؤسس لـ"أدب السجن"، صعوبة الحديث عن أول سجين في التاريخ، ومن اخترع السجن؟ وكيف كان شكل السجن الأول؟ وهل كانت تجربة السجن الأولى فردية أم جماعية؟.. لكن بعض المصادر التاريخية تعد بداية الكتابة في "أدب السجن"، كانت مع بوثيوس الفيلسوف والسياسي الروماني "480 - 525"، في كتابه "عزاء الفلسفة"، الذي يرجح أنه كتب أثناء وجوده في السجن، انتظارا لتنفيذ حكم الإعدام فيه. عموماً، تبقى الكتابة عن تجارب السجن قديمة جداً، قدم فعل الاعتقال وفكرة السجن ذاتها. يكتشف القارئ لأي عمل إبداعي ينتمي إلى هذا المجال - بالدرجة الأولى الأعمال الروائية - أدبا إنسانياً نضالياً، انسل من رحم الجوع اليومي والمعاناة النفسية والقهر الذاتي، حيث تمتزج مشاعر المكابرة وعزة النفس بأحاسيس النذل والإحباط والانكسار، ويختلط الأمل بالأمل في فضاء السجن، حيث لا يموت الإنسان من الجوع أو من الحر أو البرد أو الضرب أو الأمراض أو الحشرات، لكنه قد يموت من طول الانتظار. معتقلات تكاد سماتها تكون متشابهة، ينطبق عليها المثل القائل "الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود". على غرار باقي العشوب والأمم، كان حصاد العرب في أدب السجن وافراً، عبر تاريخ يمتد إلى عصر الشاعر أبي فراس الحمداني، ويرجح أن يكون حتى قبله، حين كتب "روميته" في سجون الروم، لكن فورة هذا الصنف الأدبي لم تزدهر إلا في القرن الماضي، مع مجيء الاستعمار، وما تلاه من احتدام للصراع على السلطة في عديد من الدول العربية، أفضى هذا الأمر إلى ارتفاع منسوب الدسائس والمؤامرات، فيما بين الأطراف المتصارعة "الأنظمة / المعارضة"، ما عجل بفتح الباب على مصراعيه للاعتقال السياسي. في رفوف الخزنة العربية عينات من "أدب السجن"، لا محالة سيعاني القارئ كثيراً أثناء قراءتها، لقدرة أصحابها الفريدة؛ على استعمال اللغة والعناية بالأسلوب وتوظيف التركيب لجر القارئ إلى معايشة التجربة معهم وراء قضبان الزنزانة، لدرجة أن هذه الروايات تخلف ندوباً داخل كل من يقرأها.

ب- أسباب ظهور أدب السجن:

لعل أبرز أسباب ظهور أدب السجن الحرب النفسية التي يتعرض لها الشجين على الصعيد الداخلي والخارجي، تلك الحرب التي تشن ضده من سجانته الذي يسعى بكل

الطرق إلى دفعه للشعور بالدونية وتبخيس الذات والإحباط واليأس الشديد. تلك الطاقة الكبيرة من المشاعر وجدت في الكتابة الطريق الوحيد المتاح أمامها لتظهر وتتفجر، "فهي وسيلة السجين الوحيدة ليبصق كم الأسى والحقد والمرارة الذي تجزعه نتيجة تراكم السنوات والعذابات، فتفجر ذلك الإحساس الوجداني وتحررت تلك الطاقة الكامنة استجابة للوضع القائم وترجمت على هيئة شعر أو نثر؛ فصارت الكلمة هي متنفس السجين وتسريته الوحيدة، وظهرت نتيجة لذلك قواميس لغوية خاصة بالسجن وقضاياه، وتشكلت الفاظ ذو دلالات جديدة شديدة الخصوصية، مثيرة للانفعال بسبب تعبيرها عن مضامين إنسانية وثورية ونفسية"⁸.

وكان لظهور أدب السجون وممارسة كثير من السجناء لفن الكتابة آثار مهمة جدا، إذ تركت بصمات إيجابية على واقع الشجن، وطورت ثقافة السجين وفكره، فتلاحظ فرقا كبيرا وتغيرا واضحا يطرأ على السجين الكاتب بعد قضاؤه مدة من عمره في السجن، حيث تتطور القدرة على التعبير وإدارة دفة الحوار مهما كانت الأيدولوجية التي ينطلق منها، فتجربة السجن رغم قسوة ظروفها كانت كفيلة بالرجوع إلى الذات، وزيادة الوعي وإغناء التجربة الذاتية وتحمل المسؤولية، إلى جانب التأريخ لكثير من المواقف والأحداث بلغة وصفية تفصيلية.⁹

فجاء الأدب تعويضا لكثير من الحاجات المفقودة والمسلوقة من السجين، إذ كانت الكتابة بمثابة الحق المنتزع والحرية التي أحرزها السجين بعد انتهاك حقوقه كافة في ظلمة المعتقلات، فكان أديه انعكاسا للحرمان والقمع والإرهاب مستفيدا بما أتيح له من أدوات قليلة ومن زمن ممتد طويل. وقد يتبادر إلى الذهن أن تجربة السجن وفنية الكتابة فيه، حكر على الفلسطينيين بحكم وضعهم الراهن تحت الاحتلال، وهذا بجانب للصواب، فتجربة السجن تجربة عربية وعالمية أيضا خاضها الكثير من القادة والأدباء وكتبوا فيها، وجاءت الكتابة فيها على صورتين، الصورة الأولى: من كتب في السجون ومواضيعها مثل عبد الرحمن منيف في روايته "شرق المتوسط" و"الآن هنا"، و"تجربة الشعر في الأدب الأندلسي" لرشا عبدالله الخطيب و"السجون وأثرها في شعر العرب" لأحمد ممتاز البزرة، كما كتب يحيى الشيخ صالح "أدب السجون والمنافي في فترة الاحتلال الفرنسي". أما الصورة الثانية التي جاءت عليها تجربة الكتابة شعرا أو نثرا فهي بقلم السجين نفسه، وهي أكثر من أن تعد وتحصى قديما وحديثا عربيا وعالميا، منها قصائد الحطيئة في استعطاف عمر بن

⁸ سلمان جاد الله، منابع الحركة الأسيرة الوطنية، ص31.

⁹ المرجع نفسه، ص47.

الخطاب قديما، وروميات أبي فراس الحمداني، وحديثا "حصاد السجن" لأحمد صافي ورواية "خطوات في الليل" لمحمد الحسناوي. ومن الأمثلة على أدب السجن العالمي نجد ناظم حكمت الشاعر التركي العظيم الذي أمضى خمسا وعشرين سنة في معتقلات اسطنبول، أصدر خلالها أشعارا وكتابات عديدة منها مسرحية "الزجل المنسي" ورواية "إنه لشيء عظيم أن تكون على قيد الحياة". كما ألف الزوائي الروسي ديستوفسكي روايته "منزل الأموات" التي كتبها في منفاه في سيبيريا حيث قضى حكما بالسجن والأعمال الشاقة لمدة أربع سنوات، وشاعر تشيلي بابلو نيرودا الحائز على جائزة نوبل، والذي كتب تجربته في مذكراته ووافته المنية في المعتقل¹⁰. فالسجون مازالت قائمة وما زالت أقلام السجناء الأدباء وإرادتهم صامدة وشامخة شموخ الجبال.

ج- لمحة عن تاريخ أدب السجن:

إن شكل السجن عبر تاريخ البشرية احد الهواجس التي شغلت الإنسان عبر التاريخ، وهذه الظاهرة تشكلت واقعا قبل أن تتشكل على مستوى الوعي الإنساني، فتبلورت هذه الظاهرة في قوالب فكرية وأدبية مختلفة لاحتوائها على التجربة الفردية، والجماعية وعبرت عنها بصيغ متعددة حسب الزمان والمكان والظروف المحيطة، وهو ما عرف بأدب السجن.

يعتبر أدب السجن جزء لا يتجزأ من الأدب العربي، ويكتسب خصوصيته من مصداقية أحداث التي تنتقل من الواقع إلى أدب الخيال لتسلط الضوء على معاناة إنسان أو مجموعة احتجزت بدون إرادة منها في معتقل، وهذا المعتقل يتراوح ما بين السجن و الإقامة الجبرية إلى المنفى، ومن هذا نطرح الإشكال: ما هو أدب السجن؟ ما هي سماته؟ هناك الكثير من الأدباء ممن اجتهدوا في تعريف "أدب السجن"، وجميعها متشابهة في مضمونها، وأصولها، ومختلفة قليلا على الحدود والمساحات والأجناس والتصنيفات، في هذا الصدد يعرفه بعض الأدباء والباحثين رئيس اتحاد الكتاب الفلسطينيين الروائي "إبراهيم الزنط" المعروف بغريب عسقلاني، والدكتور الأديب والناقد والمحاضر في الجامعة الإسلامية "عبد الخالق العف" توافقوا على أن أدب السجن: «هو الذي يكتبه الأسرى في المعتقلات، ويستوفي الحد الأدنى من الشروط، وأضاف الأديب الزنط أنما يكتب عن السجن والأسر خارج السجن من غير الأسرى أو من المحررين لا بعد أدب السجن، ويمكن تسميته أدب عن السجن».

¹⁰ جميل سلحوت، أدب السجن، ص10

كما نجد الأسير المحرر الأديب والروائي "شعبان حسونة"، تطرق لثلاث مدارس في تعريف أدب السجون؛

الأول: هو ما يكتب في الأسر ويهتم بقضايا السجن، وهنا يتم استثناء الأدب العاطفي والبوليسي وغيره من الأنواع التي تكتب في الأسر.

الثاني: هو كل ما يكتب في الأسر، وهنا يتم استثناء ما كتب عن الأسر من غير الأسرى كرواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف.

الثالث: هو كل ما يكتب عن السجون وكل ما يكتب بأقلام الأسرى، على أن يستوفي الشروط في كتابة الرواية والقصة... واختلف المختصون بشمل الخاطرة، والرسالة، والمقال في هذا الإطار".¹¹

يعرفه الأديب الأسير المحرر "فايز أبو شمالة": أن أدب السجون هو كل ما له علاقة بالوجدان والعاطفة الإنسانية والتعبير عن ذلك فنياً، وهذا يشمل الرواية والقصة والعمل المسرحي ويتكون من شقين، شق يتعلق بالسجناء أنفسهم، وما كتبه هم من داخل غرفة السجن، وما وقفه اثناء وجودهم في السجن وحتى بعد خروجهم منه، فالتجربة قائمة، وتنعكس في التعبير لسنوات طويلة الأمد وشق يتعلق بما عبر عنه الأدباء خارج السجن، ولا سيما أولئك الذين تخيلوا حياة السجن واسمعوا لها وعاشوا بوجدانهم تجربة السجناء وراحوا يعبرون عنها بصياغتهم الخاصة، وأسلوبهم القادر على تصور حياة السجن، كما يعرفه ممدوح عدوان أدب السجون « هو نوع من الآداب الذي استطاع أن يكتبه أولئك الذي عانوا السجن و التعذيب، خلال فترة سجنهم و تعذيبهم أو بعدها، أو كتبه الذين رصدوا تجارب السجناء عرفوهم أو سمعوا عنهم.

فرضت تجربة السجن نفسها على الأدب العربي منذ قديم الزمان، فقد جسد شعراء العرب في الجاهلية والإسلام أشكال التعذيب في السجون ومراحل وأساليبه، ويقصد الباحث " عبد العزيز الحلفي" في كتابه أدباء السجون: «تجربة عدد من الشعراء العرب الذين ألفت بهم السلطة في غياب السجن لأسباب متعددة وابدعوا في محابسههم قصائد تتسم بالقوة، وتموج بتفاصيل حياة قاسية مفعمة بالشوق إلى الحرية». فالسلطة مارست عليهم أساليب التعذيب ومنعتهم من استعادة حريتهم التي يتشوقون إليها.

كما نجد موسوعة" العذاب" التي وضعها الباحث العراقي عبود الشالحي فينا ركزت على رواية مهمة في هذا المضمار، حيث أسهبت في شرح كافة أشكال التعذيب الجسدي

¹¹ - رافت حمدونة، أدب السجون التعريف والمميزات، [https://pulpit-alwatanvoise.com, articles](https://pulpit-alwatanvoise.com/articles)

التي مورست في تاريخ العرب، والتي تعبر عن بشاعة ما كان يحدث للسجناء، ومن أهم أشكال التعذيب، التعليق من اليدين، والتعليق بالكلايب، والتعذيب بالنار و الماء المغلي أو البارد والتجويع؛ فقد عالجت الرواية كافة أشكال القمع التي تمارس ضد السجناء السياسيين، ومن بينها تعمد السلطات السجن أهانتهم نفسيا، وتعذيبهم جسديا بقصوى بالغة، تجعل الكثيرين منهم يتمنون الموت، في حين تتم تصفية العنيديين منهم جسديا، وهم الذين يرفضون الاعتراف بالتهم ربما لم يرتكبوها ويأبون الإدلاء بأي معلومات تفيد السلطة في القبض على رفاقهم أو معرفة خطط التنظيم الذي ينتمون إليه، وفي المقابل رصدت الرواية أساليب المقاومة التي ينتهجها السجناء السياسيون من أجل نيل حقوقهم البسيطة داخل السجن.

وتبرهن هذه الروايات على أن ما يحدث في السجون العربية أمر متشابه وكان السلطات السجون في تلك البقعة العربية قد اتفقت على أسلوب واحد في تعذيب السجناء السياسيين، وهذا ما نجده عند عبد الرحمان منيف الذي تعد تجربة السجن إحدى المحاور الرئيسية لأعماله الروائية الى القول: «إن الفارق بين مكان في المنطقة العربية، فارق نسبي، وليس نوعي.. فالسجن السياسي مثلا في أي بقعة عربية لا يختلف عن بقعة أخرى».

كما تجد في الرواية العربية عدة نماذج تتحدث عن تجربة السجن ومعاناته ومن بينها: رواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف، التي كانت محل دراستنا، أي أنها أول رواية تتحدث عن أدب السجون، فكانت نقطة الانطلاق لمن بعد، فهي تتحدث بشكل عام عن سجون الوطن العربي و كيفية القمع والإهانة التي يتعرض لها السجناء، وصنوف التعذيب الكرنك لنجيب محفوظ، والعسكري الأسود ليوسف ادريسي ومن أمثلة الروايات التي جسدت في هذه الحالة " الأشجار واغتيال مرزوق" لعبد الرحمن منيف، وقد عالجت الرواية كافة أشكال القمع التي تمارس ضد السجناء السياسيين، ومن بينها تعمد سلطات السجن أهانتهم نفسيا و تعذيبهم جسديا بقصوى بالغة.

د- موضوعات أدب السجون:

تنوعت موضوعات أدب السجون فصارت تشكل فيما بينها نمطا فنيا خاصا، ويمكن تصنيفه على أنه ظاهرة اجتماعية، ذلك أن أغلب موضوعاته تناولت جوانبا اجتماعية بالدرجة الأولى، وتحدثت عن الذات والإنسان والمجتمع. وقد صنفها الدكتور واضح الضمد

في كتابه السجون وآثارها في الآداب العربية إلى أربعة أصناف: الجوانب الذاتية والمعتقات والتعذيب والعلاقة بالسلطة والعلاقة بالأهل¹²؛ فالجوانب الذاتية هي كل ما يتعلق بذات السجين ونفسيته وعاطفته وفكره، هذه الأمور جميعاً ينالها الحظ الأكبر من التغيير والتأثر في حياة السجين، فتطفو على سطح الأدب مكامن نفس السجين في أصدق صورها، تلك النفس المعذبة التي لاقت من الهوان والإذلال ما لاقت، والتي باتت مسلوقة الحرية والإرادة بين ليلة وضحاها، فتتردد بين اليأس والأمل وبين الصبر والجزع، ثم ما تلبث أن يوصلها ليل الحنين إلى أقصى مراحل ضعفها وهشاشتها، فتجرح رواق الليل بكاء ونحيباً، يعبر حينها السجين عن قلة حيلته وقهره ووجعه المتجدد وهمومه الدائمة كل يوم.

والصمود هو الامتحان الأصعب في المعتقلات، إذ نجد فرقاً كبيراً بين أولئك الذين كتبوا عن صمودهم وقدرتهم على التحمل سواء في التحقيق أم في معيشة السجن التي فرضت عليهم، في حين نجد أن أكثر من تعرض للانهايار النفسي هم أولئك الذين يعوزهم الصمود والصبر على التكيف أو مواجهة عصا الجلاد. وكل ذلك ظهر فيما كتبه السجين في خلواته صفحات طوال طفت على سطحها أعماق المشاعر بتناقضاتها: الخوف واللامبالاة، اليأس والأمل، القلق والاستقرار، الإحباط والعزيمة، الصمود والانهايار.

ومن موضوعات السجن المعتقلات والتعذيب، حظي هذا الموضوع بكم كتابي هائل فهو البيئة المحيطة بالسجين، وهو المكان والزمان والحدث الذي يمثل السجين دور البطولة فيه، وقد وصف السجناء الأدباء المعتقلات ووسائل التعذيب وصفا حسياً بمنتهى الدقة، ما جعل منها موضوعات مؤثرة جداً. وقسم كبير من أدب السجون تطرق للحديث عن السلطة وطبيعة العلاقة بها إلى جانب الحديث عن العالم خارج السجن، الأهل والأصحاب والعائلة.¹³ ويغلب على مضمون هذا الأدب، ظاهرة الوصف التفصيلي لحياة السجين والسجن، ووصف للتجربة، تلك التجربة المريرة التي صارت جزءاً من فكره ولغته وحياته اليومية. إذ يصحو السجين ليجد نفسه مسلوب الحرية والإرادة، وهو إما متهم بجرم هو منه براء، أو سجين من غير تهمة، فتمضي سنوات عمره دون أن يعلم جرمه الذي كفل له المعاناة الطويلة، والذي ربما كان نتيجة وشاية حاقد أو اختلاف بالرأي أو معارضة مسؤول أو فعل ثوري. هذه التهم وغيرها يجدها السجنان مسوغاً لإنزال أقسى أنواع التعذيب بالسجين، تعذيب جسدي جنباً إلى جنب مع التعذيب النفسي، وحرمان من أبسط الحاجيات الإنسانية، وسلب لأقل حقوق الإنسان، فنجد ممارسات السجنان فيها انتهاك لحرمة الجسد،

¹² واضح الصمد، السجون وآثارها في الآداب العربية، ص203.

¹³ المرجع السابق، ص204

وإذلال للنفس، وتحطيم للروح المعنوية، فهناك تسلب الحرية بأشكالها كافة، حرية الكلام والحركة، وتمارس صنوف من العذاب مثل الحرمان من الطعام أو النظافة أو القوم، فينتقل السجين من حالة إلى حالة أخرى مغايرة وصادمة، حياة محصورة بين أربعة جدران وسقف أدنى بكثير من سقف طموحاته، يتحول السجين إلى كائن مسلوب الحقوق مرغما على العيش بطريقة مذلة، يفرضها سجانها كان من كان لما عهد عنه- من ضالة الشأن وانحطاط الأخلاق، من هنا جاء التعبير الأدبي داخل جدران السجون متنفسا وحيدا يتيح للسجين التعبير عن خلجات نفسه المكلومة، فأخذ يسجل تلك التجربة المريرة القاسية بأبسط ما يملك، فهناك من خطها بنعل حذائه على جدران الزنزانة، وهناك من هربها في بطون زملائه إلى خارج كهوف الشجن، وهناك من اعتمد الكتابة الذهنية وأخذ يحفظ الأحداث والأسماء والوجوه والتواريخ في تلايبب الذاكرة، ويعيد ترديدها مرارا كي لا يبليها تتابع الأيام وتدرج عجلة الزمن، فيحفظ لنفسه حقا بسيطا في امتلاك ذاكرة وذكريات، يتوسدها كل ليلة، ويتلحفها في الوقت الذي حرم فيه من توشد حضن أمه أو تلحف سقف بيته.

هـ - سمات جمالية لأدب السجون:

- يتميز أدب السجون بحيوية الانفعال، وصدق التجارب كونه ينهل من مصدر المعاناة، فيحكي عن أشخاص تعرضوا لأشد أنواع التعذيب، دون خيانة رفاقهم في النضال. وتميزت التجارب الأدبية بالالتزام في السجون بالالتزام بالقيم، والمبادئ، والتناغم مع القضية، في تجاوز الهم الفردي إلى الهم الجمعي والعام ومن أهم سمات أدب السجون:
- العمق: يمتاز " أدب السجون" بعمق التعبير في الدلالة والمضمون وفي الربط بين الفكرة والأسلوب.
- الرمزية: غالبا ما يلجأ الكاتب إلى الرمز للتعبير عما يعتلج في حناياه.
- التصوير الفني: كثيرا ما يلجأ الأديب إلى الفرط عقود اللغة، وما حوت من جمال وجواهر، ليعيد تشكيل فكرته وشعوره في قالب لغوي جديد، فتعطيك المقطوعات الأدبية لوحات رائعة، أو مشاهد صامته، أو انعطافات على مشاهد حية مفعمة بالحركة.
- البلاغة: الصناعة البلاغية رائحة الاستخدام كالكينيات والاستعارات والتشبيهات والمحسنات اللفظية والبديعية.
- الاختزال: أي ضبط الفكرة التي تحتاج إلى فقرات طويلة في فكرة صغيرة .
- العاطفة المتأججة: فلا تكاد تجد مقطوعة متكلفة المبنى أو المعنى وإنما منسجمة في معناها ومبناها مع العاطفة.

- سعة الخيال: يلجأ الكاتب إلى الخيال في الغالب لاستعارة الصور أو الأحداث فتتفاعل فكرة في خياله مع صور إبداعية، بقالب لغوي خاص.
- الثقافة الواسعة: حيث يهتم الأسرى بتنمية ذواتهم ومهاراتهم وقدراتهم¹⁴.

ثانياً : الجانب التطبيقي في رواية "شرق المتوسط"

أ-نبذة عن المنهج المتبع في دراسة الرواية:

المنهج الموضوعاتي:

يعد جون بول ويبر من أبرز النقاد الموضوعاتيين في فرنسا حيث كان « يتوزع النقد الجامعي - الفرنسي - الاهتمام بالإرث اللانسوني¹⁵ من جهة، وما يطلق عليها النقد الجديد، ومن جهة ثانية، إذ يكمن الفصل الأساسي بين التيارين، في التوجه الأول نحو الكشف عن حقيقة النص من خارجه، أي النظر إلى العمل الأدبي من خلال صاحبه، في ارتباط بالعلوم الإنسانية المساعدة، بينما يتوجه الثاني إلى اختراق معنى العمل ذاته والانطلاق منه قبل الالتفاف إلى صاحبه.

ويندرج في هذا التيار الثاني " سارتر " SARTRE وج بولي " G, poulet * وبلا نشو Blanchot وباشلار " G. Bachland. " وبارث R.Barthes وستار ويسكي " Starrobinsuy ورومني "Rousset" " ويبيكون "Bicon" وج بلاين " G. Blin. " وج ب، ريشار¹⁶.

ذكرت هذه الفقرة بعضاً من النقاد الفرنسيين كان توجههم وأحط وهو النقد الموضوعاتي، إلا أنهم لا يتفقون على إطار موحد لهذا النقد، فكل ناقد منهم له طريقته في التفكير ومنطلقاته ورؤيته الخاصة في نقد العمل الأدبي، في ظل النقد الموضوعاتي، يؤسس من خلالها لمنهجه الموضوعاتي .

فجون بولي مثلاً، يهتم بما وراء الأعمال الأدبية من خلال عنصري الزمان والمكان ، وأما جان بيار ريشار فيجمع بين العديد من النصوص بهدف تحديد دلالة المنظور في الأعمال الأدبية لكتاب مختلفين.

¹⁴ رأفت حمدونة، أدب السجن التعريف الخصائص والمميزات، وزارة الإعلام، 2018، ص 16-17-18
¹⁵ اللانسون " منهج تاريخي نسبة للأكاديمي الفرنسي الكبير " غستان لانسون " الذي يعد الرائد الأكبر للمنهج التاريخي، وقد أعلن لانسون عن هويته المنهجية سنة 1909، في محاضرة بجامعة بروكسل حول الروح العلمية ومنهج تاريخ الأدب .
¹⁶ سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، ص 15

في حين نجد جون بول ويبر يصب جل اهتمامه على الأثر الأدبي، دون إلغاء صاحبه يدافع عن الفكرة الملحة في العمل الأدبي لكاتب ما ، من خلال منهجه عبر العديد من الرموز، والتعديلات أو التعارضات فالموضوعاتية عنده هي: «الصورة الملحة والمنفردة والمتواجدة في عمل كاتب ما، كما قام بإرجاع الأعمال الإبداعية إلى حادثة راسخة في ذهن الكاتب، كانت قد حصلت له في مرحلة الطفولة» فيبرز سر الموضوعاتي في الإبداع عبارة عن حادث ينتج من جراء صدمة تعود إلى أوائل الشباب - إن لم نقل طفولة - الكاتب «، يبرز فيها دور الناقد في الكشف عن الدلالات التي تنضوي عليها رموز النص، أو الأثر الأدبي ككل، ثم ربطها وإعادتها إلى مصدر نشأتها الضارية في أعماق المبدع.»¹⁷

وينطلق ويبر في نقده الموضوعاتي، من الفكرة الرامية بأن النص الأدبي قائم على موضوعاتية واحدة، أو نواة واحدة مستندا في ذلك إلى الفكر الفلسفي، والأبحاث العلمية لتدعيم فكرته فيقول: «إن التركيبة المعقدة التي تقوم عليها تكوين الكائن الحي، هي بالدرجة الأولى محتواه بشكل عجيب في خلية واحدة، في قاعدة واحدة قادرة على تنظيم مسارات وراثية بالغة التعقيد... إننا نأخذ أمثلة من الواقع الحي ولا تذكر الذرة بصفتها مصدر العلوم النسبية ذلك حتى نتجنب انتقادات عالم الرياضيات والميكانيك»¹⁸.

فمن وجهة نظر ويبر فإن موضوعيته تنطلق من فكرة واحدة، كما ينطلق منها تكوين أي شيء مادي في هذا الكون ولقد نوه إلى العلاقة الخاصة بين وحدة الموضوع، أو وحدة المنبع و تأثيرات الطفولة للكاتب واعتبارها بمثابة مصدر لها.

يشترط ويبر الذي يقتفي خطط التحليل النفسي، في نقده الموضوعاتي النفسي،

الاستناد إلى ثلاث مرتكزات:

- 1 - أهمية الطفولة.
- 2 - واقع اللاوعي .
- 3 - تعبير الرمز عن رغبة قديمة أغفلها المبدع، وهكذا تكون الصورة والرمز كلها متمحورة حول الموضوع الأساسي المرتبط بالحدث المنسي¹⁹.

¹⁷ المرجع السابق ص 6

¹⁸ Jean-paul weber Domains thématiques,p09 نقلا عن محمد السعيد عبدلي، المنهج الموضوعاتي

أسسه وإجرائته، ص 136.

¹⁹ - نبيل أيوب، نص القارئ المختلف وسيميائية الخطاب النقدي ، ص288.

لقى التحديد الصارم الذي وضعه ويبر جدلا حادا، وعدم استحسان وقبول من عدة آراء معارضة، حول الفكرة الواحدة التي ينطلق منها منهجه، فقد أثارت ضجة كبيرة حول دراسته طارحة عدة تساؤلات منها:

- لماذا موضوع واحد؟ لماذا لا يوجد في العمل الأدبي موضوعات كثيرة؟
- غياب الصرامة العلمية في المناهج الموضوعاتية لأنه يسمح لأي شيء بتفسير النص.

لقد كان ويبر على قناعة كبيرة بمنهجه، وقدرته في الإجابة على الآراء المعارضة وذلك لوضوح رؤيته وفعالية أدواته، إلا أنه وعلى الرغم من ذلك وجد ويبر نفسه أمام حالات كثيرة، صعب الأمر فيها أن يعيد العمل الإبداعي كذه إلى منبع واحد فقط، يقول في هذا الصدد: "ينبغي أن نشير في البداية إلى أنه في بعض الحالات يكون من الصعب، بل من المستحيل إرجاع كل شيء إلى الوحدة، كما الأمر عند غوغول وبالخصوص عند نارفال، حيث نجد عنده تعددا في الموضوعات."²⁰

يرى ويبر أن الموضوعات الأخرى ماهي سوى تعديلات لتلك الموضوعة الأساسية منها انبثقت وإليها يعود تكوينها في حقيقة الأمر، فالتعديلات حسبه يقول: «نعني بالتعديلات كل تماثل بالموضوع وبتغيير آخر التعديل هو الموضوع في صورة رمزية (...). إننا نعتقد أن أعمال كاتب ما في جملتها تقريبا، تمثل ميدانا لتعديلات الموضوع المفضل، وبتعبير آخر، يمكن تأويلها إلى كونها مجموعة من التعديلات التي لحقت بالموضوعاتية... تأتي التعديلات على المستوى الشكلي متنوعة إلى أقصى حد».²¹

فرغم اختلاف التعديلات، فإنها تعود إلى أصل واحد هو الموضوعاتية الرئيسية، وبذلك تلعب التعديلات دورا أساسيا في تشكيل العمل الإبداعي، التي نتجت منها النصوص.

ولرصد الموضوعاتية في رواية "شرق المتوسط"، اعتمدنا على الطريقة المنتهجة من طرف الناقد الفرنسي جون بول ويبر، الذي استلهم منهجه من ثلاث مناهج نقدية: المنهج النفسي من خلال قوله: «نعني بالموضوع: الأثر الذي يتركه ذكرى من ذكريات الطفولة في ذاكرة الكاتب» والاجتماعي لاستعانته بالتأويل، والتاريخي بتتبع السيرة الذاتية للكاتب بقوله: «فهو "الموضوع" موجود عبر نسبة كبيرة من الأعمال الإبداعية للفنان».

²⁰ Domains thematique p 1-26 " j-p weber " نقلا عن محمد السعيد عبدلي، المنهج الموضوعاتي أسسه وإجراءاته.

²¹ محمد السعيد عبدلي، المنهج الموضوعاتي أسسه وإجراءاته، ص 143.

كما قمنا باستخراج مشاهد من الرواية، والمقارنة فيما بينها، ثم تأويلها لربطها بالتيمة الرئيسية "الاستبداد بالسلطة"، فهذه المشاهد ماهي إلا تعديلات انبثقت منها، وإليها تعود، كما قمنا أيضاً باستخراج بعض الرموز. ولتبرير النتائج المحصل عليها، وسبب اختيارنا لمنهج -جون بول وبيير- قمنا بتتبع سيرة الكاتب الذاتية والأدبية، ومقارنتها بالنتائج المحصل عليها، أي الديمة الرئيسية في "شرق المتوسط وهي: الاستبداد بالسلطة، ورصدها في أعمال الكاتب الأدبية الأخرى.

وإذا عدنا إلى السيرة الذاتية لعبد الرحمن منيف فإننا نجد ذلك الأثر الذي ترك فيه منذ الطفولة إثر الأوضاع التي كانت تعيشها البلاد العربية من أزمات سياسية وحروب، إنعكست في حياته اليومية والأدبية، ففي أدبه يظهر جلياً أن موضوع "استبداد السلطة" متواجد بقدر كبير في أعماله وهذا ما يبرر إختيارنا للمنهج المتتبع في دراستنا.

ب-قراءة موضوعاتية في رواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف:

١-السيرة الذاتية لعبد الرحمن منيف:

عبد الرحمن بن إبراهيم بن علي منيف، ولد في شهر صفر لعام 1352هـ الموافق 29مايو 1933م في عمان الأردن، من أم عراقية وأب سعودي، توفي أبوه عام 1355هـ 1936م، وهو لم يتجاوز الثالثة من عمره، نشأ منيف في عمان، في الفترة (1933 - 1952) يتيم الأب، ترعاه أمه التي كان لها دور كبير في شحذ همته وحبه للعلم، حيث أتم مراحل دراسته الأولى في الأردن، وحصل منها على الشهادة الثانوية سنة 1952م، كانت تلك المرحلة من أكثر المراحل أهمية في تاريخ مدينة عمان، والأزمات العربية، ولعل أخطرها نكبة فلسطين 1948، وفشل الجيوش العربية في حربهم ضد إسرائيل، تركت تلك الأوضاع أثراً كبيراً في نفسية منيف.

رحل منيف إلى العراق رغبة في التعليم العالي، التحق بكلية الحقوق ببغداد سنة 1952 كانت في تلك الفترة حركات الاستقلال العربي على أشدها ، فانخرط منيف في المظاهرات الطلابية المعارضة لحلف بغداد، مما أدى إلى طرده من العراق ، بقرار سياسي مع مجموعة من الطلاب العرب ، فتوجه إلى مصر وأكمل دراسته ، وواصل العمل السياسي ، وبعدها ارتحل إلى يوغسلافيا، وحصل منيف فيها على الدكتوراه في الإقتصاد من جامعة بلجراد عام 1961م عن اقتصاديات النفط ، مارس العمل السياسي الحزبي ، خلال فترة انضمامه لـ "حزب البعث العربي الاشتراكي" ، وأصبح عضواً في القيادة القومية زمناً، ثم أنهى علاقته السياسة التنظيمية "الحزبية" رسمياً بعد مؤتمر حمص 1962م . عمل بعدها في شركة سورية للبترول " شركة توزيع المحروقات ، مكتب توزيع النفط الخام

دمشق"، وشارك في التنمية. وقد ظل منيف مناونا للأنظمة العربية " بشقيها الملكي والجمهوري " بعد هزيمة 67م، التي كان لها أثرا بالغا في نفسه، لبيدأ ممارسة السياسة ولكن هذه المرة عبر العمل الأدبي. وفي عام 1973م غادر إلى بيروت، وعمل بالصحافة في مجلة " البلاغ " الأبنائية. تزوج خلال هذه الفترة، وأنجب ثلاثة أبناء وابنة واحدة، ثم عاد ليقدم في بغداد عام 1975م، وتولى تحرير مجلة " النفط والتنمية " العراقية حتى عام 1981م غادر إلى فرنسا متفرغا للكتابة. عاد إلى دمشق خلال 1986م حيث صارت مقر إقامته الدائمة، إلى حين توفي، وبها دفن.

تشكل السلطة السياسية المرجع الأكثر، التي سيطرت في روايات منيف، فالسلطة السياسية ثابت من ثوابتها، ونقد السلطة ثابت قبل غيره، واقتفاء أثر الزمن السلطوي مشروع الروائي كله.

ينتمي منيف إلى جيل من المثقفين العرب هذه "سقوط فلسطين" فيبحث عن بديل فكري سياسي يرد به على الهزيمة، وكان البديل المدعو هو العروبة المنظمة"، التي تستنبت قواها القومية من السلطات المتعددة، وحدة عربية.

تعد روايات منيف سيرة فكرية مقنعة، تتحدث عن الغايات المخدولة، وعن الأسباب خذ لأنها المتوالدة، فرواية " شرق المتوسط" التي تجاوزت اثني عشر طبعة، قد أحدثت ضجة في العالم العربي، حيث لامست حين صدورها وبشكل مبكر موضوع القمع السياسي، وتندد بقمع سلطوي غير مسبوق، والذي يجعل من السجن مرتكزا سلطويا جوهريا، ووصفت التعذيب في السجن خاصة التعذيب الذي تمارسه مخابرات النظم الشمولية العربية، فالسجن هو موضوع منيف في " شرق المتوسط" ورواية " الآن - هنا" أو "شرق المتوسط مرة أخرى" استنكر منيف في " الشرق المتوسط"، إنسيابا يدمر الأهداف القومية، وشروط الحداثة الاجتماعية التي قضت على مشروع العروبة المنظمة، بعد سقوط فستتكرن الروايات نظاما تسلطيا التبت فيه بشكل مأساوي القومية العربية بالقمع.

وفي رواية " حين تركنا الجسر" تستولد الهزيمة من السلطة، وترى السلطة ذاتها وجه الهزيمة الأكبر، وهذا ما دعى الروائي إلى أن يؤسس روايته التي تحيل على هزيمة حزيران الشهيرة. بعدما ساوى الروائي بين السلطة والهزيمة، يأتي خطاب يستكمل متبقى قبله، يساوي بين السلطة القاتلة والحداثة الفاسدة، السلطة ونقائصها، لتعلن " النهايات" في نهايتها عن موت زمن البراءة، وانتصار زمن السلطة.

وفي رواية " مدن الملح" والتي تعد واحدة من أهم الروايات التي كتبت باللغة العربية إن لم تكن أهمها على الإطلاق، في أجزائها الخمسة، التي توهم بتأويل سريع، يأتي من النفط

والسلطة المنتظمة، والشركات الأمريكية، والمستشارون الذين يأتون ولا يعودون، غير أنها تؤسس في صورتها العام على هزيمة البراءة، واحتجاب القيم وعلى انتهاك، موروث قديم متعدد الأبعاد، إذ عارض منيف في "مدن الملح" رواية السلطة بسلطة الرواية التي تمزج الواقع بالمتخيل، وتتوجع عن حقيقة، فقد أنتج سلطة النفط المستفزة رواية سلطوية، وقد صنف على إثر هذا كمعارض للأسرة السعودية، ومنع تداول الرواية في المملكة، وسمح بنشرها لاحقاً بمعرض الرياض للكتاب.

ومن السيرة الأدبية لمنيف يتضح لنا أن موضوعه هو استبداد السلطة، وهو متوجه بقدر كبير في أعماله.

٢- تمهيد

من قال "لا" في وجه من قالوا "نعم"
من علم الإنسان تمزيق العدم
من قال "لا" .. فلم يمت
وظلّ روحاً أبدية الألم!

"لا" تلك الكلمة الملعونة التي تستثير أعتى الجبابرة، والتي شهد أمل دنقل أنها في حال التمرد تبقينا أحياء نحفظ كرامتنا وعزتنا ولو مات الجسد!
ولكن هل لسلاح الكلمة أثر يُباري سلاح الصواريخ والرصاصات؟
هل لكي ينتفض الآخر لا بد من الدماء التي تخلفها إطلاق الرصاصات، وإلا بات السلاح هشاً ضعيفاً كسلاح الكلم؟
أم تُرى أن تأثير الكلمات يكمن في أنه لم يخلف وراءه أي أثر أو دليل يدينه أو يضعه تحت طائلة الاتهام تحت مسمى الديمقراطية؟
أرى جسدي يرتعش، وفرائصي ترتعد، حتى صدري يعلو وينخفض وي! كأنه تحت تأثير ذبذبات كهربائية...

شعور بالخوف يتملكني، حتى مصباح الغرفة باتت صفرتة شاحبة كالصفرة التي اعتلت وجهي، شفتاي تتشنج، أسناني تصطك، من الأفضل أن أستلقي على مخدعي، وأتدثر بغطائي كي أنام.

أه، عليّ ألا أنسى تغطية وجهي حتى لا أرى أشباحهم.
ولكن كيف أنام بعد ما قرأت كلمات رجب إسماعيل المفعمة بالقهر والاستبداد... المحاطة بالكهرباء والمنفردة، وأعقاب السجائر التي أطفأوها في جسده.

ولكن لم الخوف؟ أترى رجب أسماعيل بإرادته أشجع مني؟! سوف أحارب خوفي وأقول لا في وجه الظلم، وأصنع بإرادتي تمثالاً لا يُفتته أشد أنواع التكيل.... ربه! ما كل هذا التشوش الذي لحق بي، أهذا مُراد كاتب الرواية؟ أن يضع القارئ في مثل الحالة التي أنا عليها بعدما فرغت من روايته؟

تذكرتُ عبارة عبد الرحمن منيف حين قال عن وظيفة الرواية:

«إن المقصود ليس قضاء وقت وانحدار دمعين كي تريح ضميرك، وإنما يجب عندما تنتهي الرواية أن تبدأ أنت... إن الروايات المهمة يبدأ أثرها عندما تنتهي...»²² وهذا ما حدث وقت قراءة (شرق المتوسط) للأديب (عبد الرحمن منيف).

رواية تحكي الواقع البائس، تحكي امتهان حقوق الإنسان، وكيف يُرخص في بلاد الظلم والفساد، ولذا لا عجب أن يبدأ منيف روايته ببعض بنود حقوق الإنسان، إن اعتبرنا أننا نُعامل ككائنات بشرية لا....!

أ- سبب التغيير وأداته وغايته

رجب إسماعيل خريج إحدى جامعات شرق المتوسط، شغف بقراءة الروايات شغفا كبيرا، وأحب السياسة فتحول إلى قراءة الكتب الممنوعة، وبدأ يخفي أوراقا سرية تحت الفراش والسجاد، ويغيب عن البيت أوقاتا طويلة، وبعض الليالي لا يعرف أحد أين ينام؟ ثم شرع يعطي أمه أوراقا، ويطلب منها أن تخفيها في مكان أمين، وأن توصل بعضها لأصدقائه السياسيين، وترشد رجلا يأتي إلى بيتهم، لم تره من قبل إلى بيت صديق، فكان هذا التحول الكبير في حياته بداية رحلة الخطر له ولأسرته، لأنهم يعيشون في بلد ما يقع شرق المتوسط، يتميز بقسوة نظام حكمه السياسي الطاغي الذي سلب الحريات وكم الأفواه، ولاحق الأحرار، وزج بالآلاف من المناضلين في السرايب والأقبية، وبهذا المظهر اللاإنساني خرم الإنسان من الحرية، فأنحدرت قيمته وصار واقعه السياسي صعبا.

وحين تلمس رجب تجليات الواقع المزري الذي يعاني منه شعب بلده المضطهد، وفهم طبيعة النظام السياسي الحاكم الذي يهيمن على كل شيء، وأحس بقسوة الحياة المتردية التي لا تليق بمكانة الإنسان في الحياة، رفض ما لمس وفهمه وأحس به رفضاً قاطعاً، وعمل على تغييره، ولأنه مثقف، والمثقف تكون أدواته في التغيير هي الكلمة، أعلى من شأنها لاعتقاده بأنها تتسم بفاعلية كبيرة، "الكلمة ليست السلاح، هي ضمائر الناس وعقولهم، السلاح الحقيقي لأن الكلمة الفعالة توظف في الإنسان ضميره، وتحرضه على

الفعل، وتدفعه إليه؛ فتؤثر فيه تأثيراً كبيراً، لذلك تغدو سلاحاً مناسباً للتأثير والتحريض والتغيير، وهذا ما جعله يعتمد عليها في تحقيق غايته المنشودة "أردت بالفكرة، بالكلمة، أن أجعل الناس أكثر سعادة" لم يكن رجب إسماعيل يطمح بسعيه لتغيير الواقع السياسي في بلده إلى تحقيق مصلحة ذاتية، بل إلى جعل حياة الشعب تتحلى بأسس الكرامة الإنسانية منطلقاً من المثل الأعلى الذي يؤمن به، ويسعى إلى تجسيده، فغاياته من التغيير يمكن وصفها بأنها نبيلة، وذات طابع أخلاقي.

ب- سيميائية العنوان:

ولأن العنوان هو عتبة النص؛ ففي عنوان الرواية حضور "للمكان عنواناً" على حد تعبير بسام قطوس في دراسته²³، فالعنوان من الناحية الدلالية مكان، ومن ناحية الصياغة اسم معرف بالإضافة؛ مما أضفى جمالاً في الصياغة وعمقاً في الدلالة، كما أن توظيف المكان في العنوان لهو تأكيد على مكانية النص، وإحلال للقارئ في دائرة مجرى الأحداث. وعلى الرغم من ذلك، فإن القارئ يجد صعوبة في تحديد دلالة العنوان بعيداً عن النص، وفي ذلك يقول ابن مالك: "إن عنوان الرواية يتقدم في البداية بوصفه سناداً مستقلاً لا يملك من مضمون دلالي سوى ما يحدده له القاموس، ويبقى مع ذلك خاضعاً لاحتتمالات دلالية مختلفة يصعب علينا إزاءها ترجيح هذا الاحتمال الدلالي أو ذاك، نسلم بأن مضمون العنوان ليس ثابتاً، ولا يمكن أن نضبط تجلياته الدلالية في استقلاليته. ومن هنا وجب علينا أن نرده إلى نظام النص الذي ينتمي إليه."²⁴

ومن هنا فالمتأمل للعنوان يتساءل: ما المقصود بشرق المتوسط؟

العنوان جاء واضحاً غامضاً، فماذا يعني شرق المتوسط؟ هل هي بلاد العرب، أم دولة بعينها؟

أم قصد دولة ما، ولكنه نظر لبعيد فأدرك أنه سيكون مآل الأمة العربية جمعاء، فتركه دون إيضاح؟

لعلّ الأقرب لي هو الأخير، لأن هذا هو ما حدث وما يحدث في بلادنا العربية.

ج- الفكرة (التيمة الرئيسية):

تمحورت رواية شرق المتوسط حول فكرة التعذيب الذي يُدار داخل أروقة السجون، كما عرضت حال السلطة والنظام بأسلوب موازي بين العرب والغرب بطريقة غير مباشرة،

²³ بسام قطوس، سيميائية العنوان، ص 137.
²⁴ ابن مالك، السيميائيات السردية ص 81-82

وقد جاءت الرواية بلسان الراوي المتكلم حتى يضرب الأثر في أعماق النفس البشرية فيتخللها، ورغم أن الكثيرين تحدثوا في أدب السجون وما يحدث داخل دهاليز المعتقلات، إلا أن منيف أجاد التغلغل داخل نفس أحد المعتقلين وغاص في أعماقه حتى يسرد لنا صورة حية مفعمة بالأسى حيناً والتمرد حيناً آخر، ليبرهن أن في الموت بعضاً من حياة!

تبدأ رواية "شرق المتوسط" لـ "عبد الرحمن منيف" بوصف الباخرة "أشيلوس"، التي تحمل على متنها بطل الرواية "رجب اسماعيل" وهو في طريقه إلى أوروبا للعلاج. "أشيلوس" تهتز، تترجح، تبتعد بحركة ثقيلة تشبه رقصة ديك مذبوح، والميناء عند الغروب، يستقبل الأضواء الرخوة: يعلكها بسأم ثم يتركها فتسقط، ترتجف فوق الماء، ثم تذوب وضجة البشر في تلك الساعة المليئة باللاجدوى، أشبه ما تكون بأصوات جراء مخنوقة". بهذه اللغة الشعرية الباذخة التي تبدأ بها الرواية، لن نتوقع أبداً أن صفحاتها تخفي كما من العذاب والأسى يفوق أي احتمال، وأنت في صدد دخول رواية تتحدث عن السجن السياسي وفضاعته.

لا تحدد الرواية التي تجري أحداثها بعد خروج "رجب" من المعتقل، مكاناً جغرافياً معروفاً لها، بل تكفي بالإشارة إلى أنها تحدث في بلدان "شرق المتوسط"، وهي أيضاً لا تتشغل بنقصي ما حدث داخل جدران الزنزانة فحسب، بل تذهب أبعد من ذلك. فعبّر تقنيتي الاسترجاع والتذكر، نعرف لمحات سريعة عن حياة "رجب" قبل الحدث الجلل الذي غير مجرى حياته، ونعرف أسباب الاعتقال. أما سمة الرواية الأبرز، فهي أنها تتفحص عميقاً الآثار النفسية التي تركها السجن في داخل السجين بعد خروجه، والذكريات المؤلمة التي ترافقه ولا تبرح خياله ورأسه.

مرّت الرواية بالعديد من المراحل التي تُحاكي تذبذب النفس وترنحها بين اليأس والأمل، الضعف والقوة، الاستسلام والصمود!

فكانت أولى مراحلها هي الصمود والدعوة إلى الحرية والتي نبتت نتاج قراءاته وتربيته، حتى تم اعتقاله؛ فانتقل إلى مرحلة السجن والتعذيب، وكان عليه أن يُثبت عزّته وشموخه رغم الألم، حتى جاءت مرحلة الإرادة ضد تخاذل الجسد!

ثرى هل يستسلم للجسد المنهك، أم يبقى على صموده؟ وكانت تلك هي المرحلة التالية والتي غدت بعد صراع مع إرادته نتيجة مؤثرات سلبية حتى أودت به وهوى! وربما كانت تلك المسببات شفيعة له حينما وقّع على صكّ خيانتته!

ولكن هل لأنفاس الحرية أن تختنق؟! لم يخنع طويلاً فعادت محاولة الصمود مرة أخرى ولكن بشكل مختلف، في هيئة (الكلمة)، فقرر أن يكتب كل ما حدث له ولأصدقائه في

السجون، ولم يكتف بهذا بل قرر الدعوة في بلاد الغرب، ولكن هل ستتجح محاولاته؟ في ظل الطغيان المتفشي لن تستطيع التوقُّع!، بل ومن واقعنا المرير باءت محاولاته بالفشل نتيجة الضغط بحبس حامد زوج أخته أنيسة لعودته، فأتى الاستسلام المُقنَّع، وبالفعل عاد وتم إصابته بالعمى... حتى كانت المرحلة الأخيرة... الموت!

الرواية قامت على عدة تيمات رئيسية كان لها أكبر الأثر في تشكيل هذا العمل الروائي، لعل أهمهم هو:

١- استبداد السلطة:

تقوم رواية "شرق المتوسط" على استبداد السلطة، والتضييق على حريات المواطنين، الذي يعد الموضوع الرئيسي، حيث تفضح الأسلوب الوحشي والقمعي الذي يتعرض له السجين السياسي، وهذا في صورة القلب المنقف " رجب إسماعيل "الذي تمرد على السلطة القمعية وأساليها الجائرة ، لم يستطع جسده أن يتحملها ، فقد فقد بصره ومات نتيجة العذيب الذي لقيه في سجون بلده إلا أننا لا نجد أي إشارة واضحة إلى السلطة ، التي تضطهد الإنسان في الوطن العربي، ففي هذه الرواية لم يصح الكاتب علانية استبداد السلطة ، كما أنه لم يشر إلى بلد محدد بل افترض منيف أن القمع حالة شاملة، وأن الهموم والقضايا في العالم العربي مشتركة.

استهل منيف روايته بنص وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، هذا النص عبارة عن سبعة مواد، لأنه يصح في رواية "شرق المتوسط" عن حقوق الإنسان ، ويذكر الجانب السلبي وقت فقدانها ، ونفاذها بين الناس ، والجانب الإيجابي عند وجودها، ومع ذلك يعتبر أن دستوراً عن حقوق الإنسان ، ما هو الا حبرا على ورق فقط، وافتتاحها بنوابة حقوق الإنسان يرتبط بعلاقة قصدية ،وهي تسرب الأوراق التي كتبها رجب عن فضح ما يجري في دهاليز السجون.

ويؤكد منيف بهذه المواد ، حق كل إنسان أينما وجد في الحرية، والتميز العنصري وتحريم التعذيب والاضطهاد وانتهاك الحياة الخاصة للإنسان وحرية الفكرية والاجتماعية والعلمية، فقد جاء في المادة الأولى: " يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم بعض بروح الإخاء " وحقيقة الأمر أن هذا الكلام ليس مطبقاً على أرض الواقع، فالناس ليسوا سواء، فهناك الحاكم والمحكوم، والحر والعبد والغني والفقير والسجان والسجين، ونرى في "شرق المتوسط" جوراً وظلماً، فليس هناك إخاء أو ود بين الحاكم والمحكوم ، بل يتعامل الحاكم مع الناس بسلطة عليا جائرة ، تظلم الآلاف من رقاب العامة.

وفي المادة الثانية: " لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان دون تمييز بسبب العنصر أو اللغة أو الجنس أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر ..."، فالحقوق والحريات مقتصرة على أصحاب النفوذ والحاكمين، أما الطبقة المستضعفة فلا حرية لهم ولا حقوق. أما التمييز فيظهر في أوجه عديدة بسبب العنصر أو الرأي السياسي، ففي رواية "شرق المتوسط"، يسجن المئات لأن لهم رأياً سياسياً مغايراً. وجاء في المادة الثالثة " لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه"، فأين حرية رجب إسماعيل وسلامته، من هذا الكلام؟ أ في سجنه وفقدانه لأدنى حقوقه في الحياة؟ أم في تطبيق كل أساليب القمع التعذيب؟ أم في انعدام سلامته الصحية واصابته بمرض خبيث؟. وفي المادة الخامسة " لا يتعرض أي إنسان للتعذيب أو للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحط من الكرامة " ، وهذا ما لا نجده في "شرق المتوسط" نهائياً، فالتعذيب، والوحشية، والقتل ، والإهانة، والتجويد، والتخويف، والحبس الإنفرادي والقمع ، يبدو زاخراً في بلد "شرق المتوسط" التي تحدث عنها منيف ، كانت سبباً في وفاة والدة رجب، وتهديد صهره حامد بالاعتقال حتى يعود رجب من باريس، وعندما عاد مات على يد جلاديه . وفي المادة العاشرة: " لكل إنسان الحق، على قدر من المساواة التامة مع الآخرين في أن تنتظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة، نظراً عادلاً علنياً.."، لكن لم نجد محامياً واحداً في الرواية دافع عن رجب، حتى أنه لم يعرض على محكمة أصلاً، وإنما أخذوه إلى السجن مباشرة.

ويذكرنا هذا الوضع بالسجن الإداري الذي تنتهجه سلطات الاحتلال الإسرائيلي، حيث يقيم السجين شهراً وسنوات في سجنه دون إحالته إلى المحكمة. وفي المادة الثانية عشرة: " لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات شرفه أو سمعته..."، و ما حدث مع والدة رجب وصهره حامد ينفي هذا كلياً . وفي المادة الرابعة عشرة: " لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى، أو يحاول الإلتحاق إليها هرباً من الاضطهاد..."، لكن عندما لجأ رجب إلى باريس تم استدعاؤه..

تعالج المواد التي اختارها "منيف" في مجملها هدف واحط ، وهو الحرية، لأن الحرية ثمن غال ، يدفع من دم الإنسان حتى آخر قطرة، فقد دفع الأحرار الذين اختاروا أن يرفعوا أصواتهم في وجه الظلم والاستبداد، فاتورة كل ذلك نيابة عن الآذنين اختاروا الصمت أو التواطؤ.

وهذا ما يمثله مضمون الرواية ورسالتها التي تدور حول رجب إسماعيل الذي لا يعني شخصاً بعينه، ولكنه تعبير عن القابعين في عتمة الزنازين، والأشخاص الذين سلبت حريتهم، في كافة الأقطار العربية.

إن الأنظمة السياسية العربية يسيطر على إيديولوجيتها الهيمنة، والشمولية وعدم تداول السلطة و وهي أسس يقوم عليها الحكم في كافة الدول العربية الاستبدادية وإن اختلفت مساراتها.

وطالما استشعرت السلطة في ذاتها هذا التعالي في مواجهة المواطنين، فهي تعطي لنفسها الحق في ممارسة كافة الأساليب المشروعة وغير المشروعة، من أساليب السلطة نجد التعذيب والسجن، و القتل إلى يومنا هذا، فهي تتعاضم، والنظام العربي ينهار يوماً بعد يوم، والأمة العربية تتآكل من الأخل والخارج، وظاهرة الإرهاب التي تفشت حتى شملت معظم الأقطار العربية.

وتجدر الإشارة إلى أن رواية "شرق المتوسط" احتوت على عدة مواضيع لها علاقة بالتيمة الرئيسية "الاستبداد بالسلطة" منها غياب الديمقراطية، والقمع، والتعذيب الجسدي والنفسي، وأخيراً الصمود والاستسلام.

٢- المرأة في شرق المتوسط:

نجد الكاتب في رواية " شرق المتوسط " يبرز دور المرأة ومعاناتها في المجتمع وتأثرها بالواقع المعاش ، وتأثيرها فيه، سواء كان سياسياً أو اجتماعياً، فلم ينكر منيف في "الرواية" استصغار شأن المرأة وعدم الأخذ برأيها، وهذا ما صوره في أنيسة وهدى، غير أنه يبرز الدور الكبير الذي لعبته هاتان الشخصيتان في تقرير مصير رجب، فضعف أنيسة أضعف رجب وضياع هدى أسقطه ، فرغم أنهما لم تستطيعا تقرير مصير حياتهما إلا أنهما أثرتا في مصير رجب، كما يذكر دور أم رجب وكيف كانت دافعا في صمود ابنها ،وانهياره بعد وفاتها، فالمرأة على اختلاف شخصيتها ، كانت عنصرا محوريا في حياة رجب .

المرأة الأم:

تلعب أم رجب دورا مهما في صمود ولداها وتحديه ، إذ أنها لم تكن أما عادية تبكي وتتوح، بل كانت صلبة وقوية تواجه مصاعب الحياة بكل شجاعة، فلقد ربت ولداها بطريقة جيدة بعد وفاة والدهم، وتخلي ابنها الأكبر عنهم ، وتكفلت بتوفير مطالب العيش لهم، تقول أنيسة: "بدأت أمي تخطط الثياب، كانت تخطط الثياب ونحن تنام، بعد أن تنتهي من أعمال البيت الشاقة، كانت تقوم بأعمال لا يقوم بها الرجال، كانت تبني سور البيت إذا انهدم،

تكسر الحطب تنقله إلى الداخل كانت تزرع بعض الخضروات وتعتني بالدجاج فإذا انتهت التفتت إلى ثيابنا، تقلب البالي، تجده ...، حتى إذا اطمأنت إلى ثيابنا ونظافتنا وأكلنا، ولم تعد لنا أي طلبات تحولت إلى ثياب الجيران، تسهر الليل لكي تنتهي منها بسرعة وتحصل على غيرها لم تكن تشكو، ولم تسمع منها كلمة شتيمة".

لقد ضحت هذه الأم بكل شيء في سبيل توفير لقمة العيش لأولادها، تقول الأم: «لم أعد أرى يا أنيسة، عميت، لا أعرف كيف أرى كي ادخل الخيط في الإبرة.. إذا ظلمت وحدي فسوف نموت من الجوع».

عانت هذه المرأة كثيرا من أجل تربية أولادها وعانت أكثر مع دخول ابنها رجب السجن فلم تكن تعلم في أي سجن هو موجود، لقد تعبت كثيرا في البحث عنه، تقول أنيسة: «وبدأت أُمي تدور ...كانت تخرج من الفجر ولا تعود إلا بعد الغروب، لم تترك مركزا إلا وذهبت إليه لكن دائما ينتظرها نفس الجواب: ليت عندنا أحد بهذا الاسم!».

عانت هذه الأم في مسيرة بحثها عن ابنها، وفي أي سجن هو، وهل مازال على قيد الحياة ذكر أنيسة حديث أمها تقول: « قالت بياس مميت قتلوه...أربع شهور وهم يضربونه، لو كان لقتلوه، فقد ظلت الأم أربع شهور وهي تبحث عنه ولم تياس، «حتى إذا رأت ذلك الشرطي يشبه ابن عمتي محمود كما قالت هجمت عليه، تريد أن تقبل قدميه، ورجته أن يساعدها فقط في معرفة ما إذا كان رجب داخل السجن.

لم يعد يهم أم رجب أي شيء في الحياة سوى معرفة مكان ابنها رجب، فلا تبالي إن قامت بتقبيل الأرجل واهانة نفسها في سبيل فلذة كبدها ، وإصرارها على إيجادها ،جعلها كل يوم تقوم بتحضير الطعام والملابس له والتوجه نحو السجون ، للبحث عنه تقول أنيسة « وظلت تعود كل يوم وهي تحمل نفس الصرة. كانت تبقي الملابس، أما الأكل فتخرجه لتهدئ غيره لليوم التالي»؟.

كان وجع الأم أكبر من وجع ابنها نفسه، فهي فاقدة للأمل، متشبثة بخيط مجهول، إلا أنها لم تستسلم للياس، تنتبث بأبسط الأشياء من أجل إيجاد ابنها، متجاهلة التعب والإرهاق. يتذكر رجب إحدى المواقف، عندما تعرضت أمه للشتم والإهانة وهي تزوره يقول: «حفروا لأمي مئات الخنادق، كانوا يحفرون لها خندقا جديدا في كل مرة تأتي فيها لزيارتي، منعوا الأكل ، منعوا الثياب، منعوا أمواس الحلاقة، ضربوها، قالوا لها: لو لم تكوني بغيا لما خلفت هذا أشاروا إلي وهم يدفعونها أمامهم!» .

لقد عززت هذه الأم القيم الأخلاقية، لكل من رجب وأنيسة، بتوفيرها لهم ظروف العيش الكريمة، رغم الفقر دون أن يحتاجوا أو يتسولوا، رحلت هذه الأم ، وتركت فراغا رهيبا في حياة كل من رجب وأنيسة.

لقد رحلت حيث كان يجب أن تبقى، رحلت دون عودة، وهي الآن تراقبيننا، تراقب أيدينا عيوننا، لهائثناء خفقات قلوبنا ترقب لتعرف كيف تتصرف، كيف تواجه لحظات ضعفنا المدمرة كانت لا تحب أن تبكي أمامه، أوصتني آلاف المرات، حتى لو اختنقت ولا أبكي أمامه، كانت تقول: "البكاء يهد أكبر الرجال وأقسى ضرية توجه لرجل أن يرى أمه أو أخته تبكي أمامه». لقد رحلت الأم ولم تترك سوى صدى نصائحها يجول في مخيلة أبناءها يذكرهم بصمودها، ويؤنسهم رغم فقدانها.

المرأة الأخت:

كانت أنيسة أختا لرجب، تكبره بعشر سنوات، تربط بينهما علاقة أخوية كبيرة، ضحت بدراستها من أجل مساعدة أمها في العمل، و توفير الظروف المناسبة لتعليم أخيها رجب، وكان ذلك بطلب من أمها، تقول الأم: «تعلمت بما فيه الكفاية يا أنيسة، ما رأيك لو تساعدني في الخياطة». فحرية التعليم المحدودة المرأة في المجتمع العربي، جعلت الأم تركز كل اهتمامها تعليم رجب و الإستعانة بابنتها في ذلك. "يجب أن نعمل، أنا وأنت، من أجل أن يتعلم رك، إذا لم تساعدني، فسوف نضيع كلنا".

أنيسة الأخت التي عاشت مع رجب كل فترات حياته وشاركته عالم طفولته و شبابه، كانت موطن أسراره تقول: « وتمر الأيام، وعلاقتنا تمر معها في الدهليز المعثم لتخرج في النهاية إلى الضوء المشع الجامح، أصبحنا أكثر من إخوة، أكثر من أصدقاء، كان يبوح لي بكل شيء حتى خصوماته الصغيرة التي لا يتعدى عمرها يوما واحد».

وبعد وفاة أمهما، أصبحت أنيسة بمثابة أم لرجب، أخذت مكانها في زيارة رجب في السجن جراء ذلك، تعرضت لعدة مضايقات عند زيارته ، تقول أنيسة: « منذ أن ماتت أمي، قررت أن أكون لرجب أكثر من اخت، أصبحت أمه وأخته في نفس الوقت وتحملت من أجل ذلك أكثر مما تتحمل امرأة في مثل سني.. حتى حينما كنت أسافر إلى تلك القرية الملعونة، على أطراف الصحراء، كنت أواجه احتمال الطلاق من حامد، وكنت لا أتكلم عن التصرفات التي أتعرض لها: بصقت في وجهي اثنين من الشرطة عندما اسمعاني كلمات بذئية، ونزعت حذائي أكثر من مرة وهددت المخبر بالضرب، أما الانتظار والجلوس على باب السجن، فقد تعودته تماما»

وبعد خروج رجب من السجن لم يجد سوى أخته أنيسة التي عاش معها مدة قصيرة قبل رحيله، وتبرز الرواية العلاقة الأخوية القوية التي كانت تجمع بين رجب وأنيسة.
المرأة الحبيبة:

جمعت بين رجب وهدى قصة حب طويلة إلا أنها لم تكمل بالزواج وذلك بسبب دخول رجب السجن، وتزوجها لرجل آخر دون إذنها أو الأخذ برأيها يحاول منيف من هذا الموضوع أن يبرز سلطة من نوع آخر وهي "السلطة الأبوية" التي لطالما فرضت رأبها على الأبناء، في اتخاذ القرارات، وخاصة البنات. فالمرأة ليس لها أية حرية في تقرير مصيرها في المجتمعات العربية وهذا ما حصل مع هدى، تقول أنيسة « في وقت آخر بدت هدى حزينة، رفضت أن تتكلم لما سألتها أول مرة، ورفضت في المرة الثانية، لكن لما ألححت عليها بكت، وضعت رأسها على كتفي وأخذت تبكي. أحسست أن في حياتها رجلا جديدا، لم تقل لي، لكن المرأة تفهم المرأة الأخرى». تقول أنيسة أيضا: « ولم تستطع أن تقاوم، انفجرت في نوبة من البكاء، وحتى تلك اللحظة لم أكن أظن أن هدى تمتلك هذا المقدار من اللوعة والأحزان!» ظللنا نبكي.. لا أدري كم من الوقت الفضي، لكن وجدتها أخيرا تتكلم إلى نفسها أول الأمر، ثم حدثتني، أتذكر أنها قالت: «سأقتل نفسي يا أنيسة، لا أطيق أن يلمسني أحد، ولذا أرغموني على أن أتزوج غير رجب، فلن يفرح بي رجل سأقتل " فهنا ندرك بأن تخلي هدى عن رجب في أصعب أيامه لم يكن بمحض إرادتها وإنما في ذلك.

طلبت أنيسة من هدى أن تخبر أهلها بأنها ترفض الزواج من هذا الرجل، وتريد أن تتزوج رجبا، تقول أنيسة: « ماذا لو قلتي لأهلك يا هدى اتصورين أنهم سيمانعون؟» لكن واقع المرأة في المجتمعات العربية، غير ذلك فليس هناك احترام لمشاعرها، وأي امرأة يمكن أن تقول ذلك؟

تقول أنيسة: « رأيت أطيايف الخوف والدهشة في عينيها، اذ بمجرد ان مرت الفكرة في رأسها تروعنت، أما أن تواجه أبا وأربعة وأخوة، وتقول لهم إنها تحب رجلا سجيناً وتريده زوجا. فقد بدا لي الموت أهون عليها من ذلك بكثير » لم تستطع هدى أن تواجه تلك السلطة الأبوية، فاستسلمت لأمر الزواج برجل آخر، تقول هدى: « لم أستطع أن أفعل شيء يا أنيسة، قال أبي لأبيه في الليلة الفائتة أنه موافق » إن الخوف، هو الذي منع هدى من الوقوف في وجه سلطة والدها، حالها حال الشعب الذي طبقت عليه سياسة التخويف كأداة للاستبداد من طرف سلطة البلاد المستبدة، فالخوف إذا تملك الإنسان يكون عائقا في سبيل حريته.

3- تأنيب الضمير

عندما يفقد المرء القدرة على فعل شيء محبوب، أو يقوم بفعل شيء خطأ، ينتابه شعور داخلي، يزداد هذا الشعور في أوقات انكساره مما فعله بيديه، فيبدأ الإنسان من هذا المنطلق بلوم نفسه، وتأنيبها كثيرا لما قام بفعله، لإرضاء بعض الأطراف على حساب نفسه، أو محاولته الهروب من مسؤولية كانت ملقاة على عاتقه، أو شعور بخيبة الأمل في شخص ما، ففي الرواية يوقع رجب "وثيقة انهياره" تحت أعين الآغا والجلادين، ويتعهد في هذه الوثيقة بعدم ممارسة أي عمل سياسي، والتعاون معهم، وإيصال أخبار الطلبة، في ذلك يقول الآغا: «ستسمح لك، لكن ما رأيك أن تنتقل لنا بأخبار الطلبة؟ لا أستطيع... لا أستطيع، لا تكن عنيدا فتخسر كل شيء... الدنيا والآخرة، قدر ما تساعدك صحتك.. تقرير كل أسبوع، كل أسبوعين» 1 يمثل رجب لمطالب الآغا ويوقع الورقة، وبذلك يتخلى عن مبادئه وأخلاقه ليدخل بذلك سجنا من نوع آخر وهو "السجن الداخلي"، الذي يعد مرهقا جدا للعقل، حيث يدخله في وقت كبير من التفكير والشعور بالقلق والحيرة، ومعاينة النفس بشكل كبير.

وبعد خروج رجب من السجن أحس بالانهيار، وتأنيب الضمير الذي لم يفارقه لحظة واحدة، بأن الحرية التي يتمتع بها ما هي إلا حرية زائفة يقول رجب: "السجن يا أنيسة في داخل الإنسان، أتمنى ألا أحمل سجنى أينما ذهبت، إن مجرد تصور هذا العذاب يدفع بالإنسان إلى الانتحار"

يدخل رجب في سجن داخلي لم يستطع الخروج منه، فرغم الصمود الذي أبداه إلا أن تأنيب الضمير يعذبه يقول: «رجب إسماعيل سقط، هذه الكلمة الوحيدة التي تفسر النهاية التي وصلت إليها، ولا يجدي أن يقال الآن ظل رجب خمس سنين، بأيامها ولياليها وراء الجدران وأنه مر على سبعة سجون، لم يضعف ولم يعترف. الإنسان محكوم عليه بنهايته، الصمود الإرادة، كل كلمات المجد المتوردة الوهاجة، تسقط في لحظة النهاية البائسة، ماذا يجديني أنني نظرت في وجوههم بتحدي الأبالسة وقوة والعناد؟ لقد سقطت، السنوات الخمس، الأيام والليالي...». وكان ذلك العناد والإصرار من رجب لم يكن إلا صورة مرفقة، تقمصها ليظهر للجلادين بأنه بطل من أبطال الروايات الأسطورية، التي لا تقهر، لكن كل ذلك تلاشي في لحظة مرت خاطفة، وأخذت معها توقيعا لنهاية سجنه الخارجي، وبداية سجن أصعب وهو سجنه الداخلي، المصاحب لكل أنواع الأحاسيس المدمرة التي لم يستطع التخلص منها يحاول رجب التكفير عن ذنبه بالكتابة، غير أن سجنه الداخلي منعه من الكتابة. «ليس هادي الوحيد الذي أعجز عن الكتابة عنه، هل أستطيع أن أكتب عن

أمي! أين أمجد ورضوان وسعيد؟ أين عشرات الوجوه الملوثة بالدم، والتي كنت أجز نفسي على أن أنظر إليها بشراهة، لكي أتألم أكثر.... وأكتب عنها؟ إن هذه الوجوه تنظر إلي الآن، من سراديبها البعيدة، من قبورها، نظرة سخريّة... تقول، تصرخ: لا تكتب عنا كلمة واحدة، اليد الملوثة، القلب الملوث، لا يستطيع أن يكتب".

يشعر رجب بالعجز عن الكتابة، فهو يحس أنه ليس مؤهلاً أن يكتب على أناس أنقياء ضحوا بحياتهم، دون استسلام أو خيانة، عكسه هو الذي استسلم ولم يصمد، فالإنسان الخائن لا يمكن أن يكتب عن الشرفاء، يقول رجب: «أشعر بالعجز، أشعر بالعجز والانتهاه! لماذا حملت معك تلك الجيفة يا اشيلوس طوال ثمانية أيام؟ ألم قتلك الرائحة؟ رائحة الرجل الميت؟ لم أر أحداً غيري على ظهر السفينة بحمل هذا المقدار وكله من رائحة الموت» 3. لقد وصل به الألم إلى حد كبير من الإحتقار للنفس والمبالغة في تأنيبها ومحاولة التخلص من هذا الجسد الذي انبعثت رائحته موقضي على كل آماله وأحلامه منذ لحظة التوقيع. «الورقة التي وقعتها، كانت شهادة الوفاة - وفاة رجب إسماعيل كإنسان - يحلم بأن يكتب» . فورقة التوقيع كانت بمثابة شهادة وفاة إنسان اسمه رجب.

٤- الكتابة

تتاول منيف في روايته موضوع "الكتابة" يجعل منها سلاحاً للمقاومة، يمكن للمرء أن يحارب بواسطتها، فكانت غاية رجب في السفر إلى الخارج الكتابة، وفضح السلطة المتوحشة، فهذه الفكرة راودته وهو في السجن، وكانت دافعا لتوقيعه وثيقة الاستسلام يقول: «وعربت في رأسي تلك الفكرة المجنونة، فكرة أن أقول الكلمات الأخيرة قبل أن أودع هذه الحياة. في السجن لن يتاح لي أن أقول الكلمات التي أريدها، وحتى لو بقيت في الوطن لن يتاح لي ان اتكلم، لم يبق لي إلا أن العهد واسافر. هل أموت قبل أن أقول شيئاً؟ والتعهد؟ لا لن اعمل في السياسة، لدي ما افعله في مجالات أخرى، سلاحى الأخير الكلمة لعلها تكون طلقة الرحمة لي ولهم، ونموت معا!». ويقول أيضاً: «من أجل الكلمة سافرت». فكثيراً ماتكون الكلمة سلاحاً فتاكاً يلجأ إليه المرء للقضاء على عدوه.

يقرر رجب أن يكتب ويتساءل عن أي طريقة شعراً أم رواية؟. يقول: «أفكر أن أكتب أشعاراً وروايات ولدي أفكار كثيرة ولكن أرغب في شيء جديد تماماً... يبدو لي أن الشعر لا يمكن أن يكتبه إلا إنسان واحد، لأنه سيل من الأحاسيس الداخلية... 3. لم يجد رجب في الشعر غايته فهو يبحث عن شيء جديد يمكن أن يكون سلاحاً مشتركاً مع غيره حتى تكون الضربة موجعة لخصمه.

أما بخصوص الرواية، يقول: «كيف يجب أن تكون الرواية. أريدها أن تكون جديدة، بكل شيء: أن يكتبها أكثر من واحد، وفيها أكثر من مستوى، وأن تتحدث عن أمور هامة...».

يختار رجب الرواية لأنه لا يريد الكتابة وحده، بل يطلب من أنيسة أن تشاركه فيقول: « اسمعي: أريد أن تكتب معا رواية، ومن نحن، ليس أنا وأنت فقط، بل وأريد أن يكتب الصغار، لو كنت عادل وتركنها: على بساطتها وصدقها، ولو كتب حامد، ولو كتبت أنت، ثم اكتب أنا بعد ذلك لو هذا الشيء حصل، ضمن إطار ما، فإن ما نكتبه معا، سيكون جديداً وشيئاً جميلاً». فمشاركة الآخرين لرجب في الكتابة باختلاف أعمارهم ومستواهم، سيكون أمراً جديداً لطالما بحث عنه، ولحقق به فكرة مجنونة ربما تكون حيل مشتقة لهاجس توقيع وثيقة الاستسلام.

٥- البحث عن الحرية

تحدث منيف في روايته عن موضوع الحرية من بدايتها إلى نهايتها، وتبدأ بمغادرة رجب أرض الوطن - على متن سفينة أشيلوس - هروبا من سلطة القمع والاستبداد، فبعد أن وقع رجب وثيقة استسلامه والتعهد أن يعمل معهم، إلا أنه تراجع عن ذلك ولم يجد سوى مغادرة أرض الوطن والتوجه إلى فرنسا، فهو يرى في الدول العربية موطنا للحرية: «قالوا أن الحرية في أرض أخرى أبعد من اليونان يمكن أن يعيش فيها الإنسان. دون أن يوقظه عند الفجر صوت المخبرين وضربات أحنيتهم.. سأرحل إلى تلك البلاد». ويرى في سفينة اشيلوس طريقاً للحرية، يقول: « اشيلوس أنت سفينة الحرية».

يقارن رجب بين المجتمعين، الشرقي والغربي وقضية الحرية، حيث تتقدم في الأول وتتوفر في الثاني، فالكتاب في فرنسا، كانوا يكتبون عن آرائهم بكل حرية، على عكس الشرق يقول: «..ويذكرون أسماء الكتب آه يا أهل باريس، لو جلتم بكتبكم إلى الشاطئ الشرقي، لقضيتم حياتكم كلها في السجون سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شيء، واحذروا أكثر أن تفكروا بالأحزاب، لأن أية كلمة تجد من يلتقطها ويجمعها مؤامرة وتخريبا، وتدفعون ثمن كلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل والتيفوس وتموتون!». إن التفاوت في مقدار الحرية بين المجتمعين الشرقي والغربي واضح، يمكن لكل واحد التحقق منه بسهولة، من خلال تغيير الأدوار بين الكاتب المناضل الشرقي والكاتب المناضل الغربي، وملاحظة مشروعية قول كل واحد منهما.

وحتى عندما راودت رجب، فكرة كتابة كلمات لها مغزى على قبر أمه يكرمها بها، فشبح "غياب الحرية" منعه من ذلك يقول لأنيسة: « هل يمكن كتابة كلمة الوفاء على القبر

دون أن يؤدي إلى متاعب أو إزعاجات؟ اتصور ذلك. لو كانت في بلادنا حرية أدنى درجات الحرية، لكتبت على القبر كلمات أخرى... « صمود امرأة في وجه الطغيان » أو « صمود عجوز في وجه الجلادين » أو « هنا ترقد المرأة التي تحددت الجلادين دون سلاح، سوى الغضب » هنا نلاحظ انعداماً تاماً لحرية رجب حتى في التعبير عن أحاسيسه نحو أقرب الناس إليه.

ويردف قائلاً: «ولما كان مستحيلاً الآن كتابة هذه الكلمات. فلا أقل من كلمة أو اثنتين، لها دلالة معينة» ولما رأى رجب أن ذلك مستحيلاً قرر أن يكتب كلمات أخرى.

فضاء الزمان والمكان:

لم يحدد منيف في روايته عنصري الزمان والمكان، إلا أنك لا تكاد تشعر بعوار أو خلل نتيجة عدم الإفصاح بهما، وربما أراد هو بذلك أن يجعل القارئ في أي وقت وأي مكان يستشعر أنه يتحدث بلسان حاله! وهو ما ظهر في تقدمته الذي قال عنها أنها مقدمة متأخرة ولكن ضرورية؛ فنذكر:

"هل لا تزال شرق المتوسط صالحة وقادرة، بعد ربع قرن على محاورة العقول والضمائر، هنا.... والآن؟ إنه سؤال التحدي!"

الشخصيات:

كانت شخصيات العمل محدودة، أبطالها الرئيسيون رجب، وأخته أنيسة، وزوجها حامد وجميعهم شخصيات نامية متطورة بتوالي الأحداث، وجميعهم يتمتعون بالثقافة كل على حسب قدره.

بعض الشخصيات كانت معيقة سلبية كأنيسة، وهدى، أما المعينة فكانت أمه والتي تحولت بالسلب بعد موتها...

أما الشخصيات الثانوية فبالرغم من عدم دورها البارز في الرواية، إلا أنه كان لها عميق الأثر في تطور نفس رجب، وتشوش حالته، أهمها أمه ذلك الجبل الذي تصدع رجب بموتها، وهدى تلك الحبيبة التي تخلت نتيجة عاهات مجتمعية، والجدير بالذكر أنّ تلك الشخصيتين برحيلهما كانتا سبباً في انتقال النفس من مرحلة القوة إلى الضعف، عكس دكتور فالي الذي استطاع أن يشحذ همته من جديد ببعض كلماته المؤثرة، وكذا بعض أصدقائه الأحرار - كهادي - فجاءت كلماتهم الثورية الملهمة سياط يلهب حماسه، ويثبت أقدامه ضد الظلم والاستبداد.

السرد:

جاء السرد تناوبياً بينه وبين أخته أنيسة، كلٌّ منهما يتحدث وفق زاوية رؤيته ومن منظوره، وبهكذا أسلوب استطاع منيف أن يعرض القضية من جميع جوانبها، فكان رجب هو الفعل، وأنيسة رد الفعل... هي المسببات وهو النتائج! وليس هذا النمط السردى جديداً فقد سبقه قبله محفوظ وغيره، وكان السرد بلسان المتكلم وعلى السنة العديد من الأبطال. عبر منيف على لسان بطله (رجب) عن تأثير الكلمة على الروح، فتجده يتحوّل إلى وحش لا تهزمه صنوف التعذيب حين تحفره أمه قائلة: «الحبس يا ولدي ينقضي، افتح عيناً واغمض عيناً تمر الأيام، وتبقى رافعاً رأسك، وإذا اعترفت سيقولون خائن ولا تستطيع أن ترفع رأسك».

وتجد حاله يتبدل بعد موت أمه، وعقب أن حلّ محلها أنيسة الضعيفة على حد تعبيره، وهي تبثه عبارات القلق والضعف قائلة لرجب: «عروق رقبتك نافرة مزرقة، هل ضربوك؟ هل حصل لك شيء؟... العروق تظهر إذا ضعف الجسم، وأنت ضعيف جداً هذه الفترة». ظلت أنيسة على تلك الحال حتى أخطت حماسته، وأطفأت استعار نيران الإرادة والحرية داخله فيقول مُذكراً نفسه لأنيسة: «الإنسان يقول أنه لن يقول شيئاً، أما إذا بدأوا يضربونه، إذا استعملوا أساليبهم فإنه سيقدر في تلك اللحظات، وكيف يقرر؟ إن جسده هو الذي يقرر، الإرادة في تلك اللحظات تموت وتخبو، والجسد هو الذي يفعل كل شيء».

ولا ينسى رجب وسط كل هذا الصخب أن يحدثنا عن أمه... صرخاته التي تدمي القلوب إثر التعذيب والحرق و... فقد صورته بمنتهى الحرفية حتى يكاد قلبك يتمزق من فرط التأثر...

«مددوني على طاولة، كنت عارياً تماماً وجهي باتجاه الأرض ورأسي يترنح من الضربات، لا أعرف أي عدد من السجائر أطفأوا في ظهري، على رقبتني، داخل أذني، وبين أليتي... ضحكوا وأنا أتلوى، بصقوا عليّ، أحسست بماء ساخن فوق ظهري، هل كانت دمائي تتفجر في مكان ما وتترنح بسخونتها؟ هل كانت قطرات من البول؟ هل كانت شيئاً آخر؟! «وضعوني في كيس كبير، ادخلوه في رأسي، وقبل أن يربطوه من أسفل ادخلوا قطتين، هل يمكن للإنسان أن يتحول إلى عدو للحيوان؟ والقطط ماذا تريد مني؟ كانت يداي مربوطتان إلى الخلف، كلما ضربوا القطط بدأت تتهشني، كلما حاولت أن أنقلب على جانبي، أحس برجل ثقيلة فوق كتفي، وعلى وجهي، وأحس بالأظافر في كل ناحية من جسدي..».

جاءت اللغة سلسلة بسيطة فصيحة، خالية من التكلف، أقرب إلى القارئ العادي، أعيب عليه أن مستوى لغته جاء متساوياً لجميع الشخصيات، وكأن جميعهم تحلوا بنفس القدر من الثقافة والخبرات.

الخاتمة:

جاءت الخاتمة طبيعية ومألوفة ومناسبة لسير الأحداث، اختتمها الكاتب بموت البطل، ولكنه أحيا الكثير من بعده، وألهب مبادئاً ترسخت وتعتقت في ذهن من خلفه كحامد زوج أخته، وعادل وليلى أبناء أنيسة، وربما أنيسة الضعيفة!

أرسي منيف على لسان دكتور فالي فكرة الحقد في عقولنا كرسالة يقدمها من خلال روايته! نعم الحقد، محاربة العدو بالحقد... قال دكتور فالي وهو ينصح رجب:

"أريدك أن تكون حاقداً وأنت تحارب، الحقد هو أحسن المعلمين، يجب أن تحول أحزانك إلى أحقاد، وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن تنتصر، أما إذا استسلمت للحزن فسوف تنهزم وتنتهي، سوف تهزم كإنسان، وسوف تنتهي كقضية!"

وبالأخير هل يفلح الحقد، وتتجج الإرادة، وتسود حرية الكلمة لتجابه قوى الطغيان المتأصلة في مجتمعاتنا العربية، أم ستظل مُكممة لا تتعدى موضع شفاهنا!

أهم النتائج التي توصلت إليها:

إنه مع الاختلاف بين هذه النماذج في الظروف والأسباب والبيئة، فإن هذه الدراسة كشفت عن حقيقة ثابتة وهي أن السجان سواء أكان في سجون الأنظمة العربية أم في سجن الاحتلال، هو أداة طيعة لأسياده يتقن دوره ويلغي إنسانيته.

- كشفت هذه الدراسة عن الأساليب التي ينتهجها المحققون لمحاربة فكر معين وقناعات ثابتة، خاصة إذا كان السجين مثقفاً، وقد لوحظ كم الصمود الهائل الذي أبداه البطل السجين في الروايات المنتقاة، والثبات على مبدئه وفكره رغم قسوة تلك الحياة التي مر بها.

- استطاع السجين المبدع أن يوثق حقائق كثيرة مهمة وخطيرة تحصل داخل أقبية التحقيق والسجون، وتقف شاهداً حياً على عنجهية الظلمة في كل زمان ومكان.

- شكل هذا الأدب ميداناً خاصاً له قاموسه وألفاظه الخاصة، كما احتوى على رسالة تربية لها دورها المهم جداً لتوعية القراء.

- كشفت هذه الدراسة عن سمات اللغة المستخدمة وخصائصها، فهي لغة عنيفة قوية تشكل قاموساً خاصاً بها، إضافة إلى تنوع أساليبها ومفرداتها وغزارة صورها وتشبيهاتها.

- تطرق منيف بكل جرأة لـ حال المعارضة السياسية لبلدان شرق المتوسط، دون تحديد أسماء، أو ذكر لمدن من خلال سيرة صغيرة للسياسي المثقف . - قدرة الروائي على تصوير واقع السجين السياسي، وما يعانیه من تعذيب من طرف السلطة المستبدة. - تبرز الرواية أهمية المناضل المثقف، وكيف تقوم السلطة الجائرة باعتقاله واسكاته، كي لا تصل رأيه إلى بقية أفراد المجتمع. - تؤكد الرواية على أن تجربة السجن الطويلة، وأشكال

التعذيب والاضطهاد والقهر السياسي أعجز من أن تقتل إرادة المثقفين وتكبح فكرهم. تؤكد الرواية ، سعي كل أديب يملك فكرا حرا، إلى رفض الرضوخ للإستبداد، كما يسعى إلى تحقيق الحرية ومقاومة الظلم.

- تبرز الرواية تأثر عائلة السجين السياسي، وكيف تقوم السلطة باضطهاد عائلته والتضييق عليهم. - إن موضوع السجن السياسي موضوع متجدد، ويحيل على ميادين مختلفة مثل حقوق الإنسان التي أحد الهموم الكبرى.

- اختلاف النقاد حول قضية المصطلح، إذ مازال يعاني الفوضى، لذلك أسهب النقاد في تقديم مصطلحات كثيرة لتعريب المصطلحين الأجنيين (Thématique et theme) التعديلات المختلفة، مختلفة في مظهرها، متقاربة في جوهرها، فهذا كله يعود إلى أصل واحد وهو التيمة الرئيسة.

- يرجع ويبر الموضوع إلى الأثر الذي تتركه ذكرى الطفولة في ذاكرة الكاتب .
- صعوبة التمييز بين الكثير من المصطلحات المستعملة، بكثرة في هذا النقد، الموضوع والموضوعاتية.

المصادر والمراجع:

أولاً المصادر:

- القرآن الكريم.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، المجلد 13، ط3، بيروت، دار صادر، 1994.
- عبد الرحمن منيف، شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ط4.

ثانياً المراجع:

- إبراهيم بن محمد البيهقي، المحاسن والمساوى.
 - ابن مالك، السيميائيات السردية.
 - بسام قطوس، سيمياء العنوان.
 - جميل سلحوت، أدب السجون.
 - حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي. ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1990م
 - رأفت حمدونة، أدب السجون التعريف والمميزات، [https:// pulpit - alwatan voice.com, articles](https://pulpit-alwatanvoise.com/articles)
 - رأفت حمدونة، أدب السجون التعريف والمميزات، مقالة إلكترونية [.https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2016/01/24/391920.html](https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2016/01/24/391920.html)
 - سعيد علوش، النقد الموضوعاتي.
 - سلمان جاد الله، منابع الحركة الأسيرة الوطنية.
 - طه وادي، الرواية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، 1996، ط1.
 - Jean-paul weber Domains thématiques,p09 نقلا عن محمد السعيد عبدلي، المنهج الموضوعاتي، أسسه وإجراؤه.
 - نبيل أيوب، نص القارئ المختلف وسيميائية الخطاب النقدي.
 - واضح الصمد، السجون وآثارها في الآداب العربية.
- ثالثاً رسائل الماجستير:
- شيرين محمد حسن سليمان، دراسة تحليلية لنماذج روائية من أدب السجون، رسالة ماجستير، القدس - فلسطين، 2018م.
 - جميلة عماد الننتشة، دلالات المكان في رواية "سجن السجن" لعصمت منصور، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، 2016.
 - مرشد أحمد، إشكالية تغيير الواقع السياسي في رواية شرق المتوسط، مجلة جامعة سبها (العلوم الإنسانية) المجلد السادس، العدد الثاني (2007 ف).